أشياء عظيمة تافهة

أشياء عظيمة تافهة
رواية
نورهان الرشيدي
الإسكندرية : حسناء للنشر
الطبعة الأولى : ٢٠١٧
ISBN 978 -977-6535-58-9
رقم الإيداع : ١٤٦٩٦ / ٢٠١٧
ديوى : ٨١٣
١٠٠ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع
٠١٠١٨٨٣١٣٦١
٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧
المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار
الإخراج الفنى : أمير مصطفى

أشياء عظيمة تافهة

روايـة

نورهـان الرشيدى

١

ليس لبرودة شهر ديسمبر مثيل، ليس لأنه أكثر صقيعًا من يناير أو فبراير، ولكن لأنه أول قطفة لشتاءٍ صريح بعد شهور من تردد الخريف المتزعزع بين بشائر البرد و بواقي حرارة الصيف.

شهرٌ يهل بفصلٍ جديد مودعًا عامًا كاملا ينتهي على أعتابه. اكتست الإسكندرية في ليلة عرسها بأجمل ثوبٍ لها على الإطلاق، فصل المطر وتألقت بزينتها الحمراء والخضراء حيث ارتدت عقدها ذا الاثنتي عشرة حبة للمرة الأخيرة قبل قدوم العام الجديد.

تقف صفية في متجرٍ للحلويات تبتاع "الكيندر تارت" الذي تعودت أن تشتريه كلما ذهبت لزيارة أحد الأقارب أو الأصدقاء، لم تفكر كثيرًا فيما ستطلبه فالخيارات لم تكن كثيرة. قبل أن تهم بالطلب، قاطعها ابنها ذو التسع سنوات:

" أمي، لِمَ لا نشتري تلك الحلوى؟ لقد سئمت من تلك "التارت المعتادة"

لم تعره أمه الكثير من الاهتمام وأكملت حديثها مع صاحب المحل ولكنه عاد يقاطعها:

"هيا يا أمي دعينا نختر شيئًا جديدًا"

ترددت قليلا ولكنها وافقته في النهاية حتى ترتاح من إلحاحه، وبالفعل اشترت صفية وأولادها الحلوى الجديدة التي لطالما كانت موجودة ولكنها لم تلحظها قط، ولكن هكذا تغفل عيوننا ما لا يراه عقلنا. ارتسمت على وجه خالد ابتسامة زهو الانتصار تتبعهما أخته لينة سعيدة بهذا التغيير المفاجئ. ذهبت صفية بأسرتها لزيارة خالتها الكبرى حيث توالت الساعات والدقائق قبيل لحظة النهاية والبداية. قد تجمع كل أفراد العائلة من أجل الاحتفال بتلك اللحظات السعيدة ودقت ساعة سندريلا لتنطلق الصيحات والصواريخ والزمامير.. وفي وقت

تقديم الحلوى، بين معجبٍ ومستنكرٍ للحلوى غير المألوفة نوعًا ما، وقف خالد مزهوًا بنفسه وباختياره غير عابئ بالمعترضين. فقد كان يشعر بالإنجاز لمجرد أنه اختار الحلوى بنفسه، والأهم من ذلك فقد كان اختياره على عكس رغبة أمه.. لم تكن الحلوى سيئة ولكنها لم تكن أيضًا الاختيار الأفضل ولكن أُعجب بها عدد لا بأس به من الأقارب بينما لم تلذ لآخرين.

وبينما تشاكس الجميع بخصوص الحلوى، بدأ والد صفية يستجوب خالد:

" لِمَ اخترت تلك الحلوى بعينها يا حبيبي؟"

أجابه خالد تلقائيا :"لأنها أعجبتني"

فعاد ليسأله الجد مرة أخرى: "نعم ولكن لماذا أعجبتك؟ ولِمَ اخترت تلك ولم تختر أخرى؟"

سكت خالد للحظات ثم أجاب: "ولكن يا جدي أنا لم أفكر في ذلك، قد أعجبتني فاخترتها"

همّ الجد أن يلقي عليه محاضرة في معايير الاختيار ولكن قاطعته صفية قائلة :" لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع يا أبي، هيا يا خالد لقد تأخر الوقت يجب أن نرحل فحازم قادم من السفر في الصباح الباكر".

أخذت صفية الأولاد وغادروا، فلم تشأ أن تترك ابنها فريسة استجواب لن يفضي إلى شيء غير مزيد من الحيرة، فقد كانت ومازلت أسيرة ذلك القفص طوال حياتها.

ركبوا السيارة وغفا الأولاد عن ذلك العالم من أول دقيقة تحركت فيها السيارة. ناموا لتستيقظ أفكار الأم الخاملة الراكدة لسنوات، وقبل أن يعلوا صوتها قطعها التخبط في اختيار طريق العودة "أأذهب من الطريق الرئيسي؟ ولكن الزحمة قاتلة!"

"إذن سآخذ طريق الترعة.. ولكنها خطرة مظلمة والأفضل أن آخذ الطريق العام مثلما تقول أمي"

" ما تلك الترهات! أي خطر ونحن في قلب المدينة !" ينبعث صوت حازم زوجها في رأسها.

أخذت تبحث عن السجائر فقد اختنق عقلها من التفكير، لعلها تُنفِث عن تلك الأفكار مع الدخان.. لسنواتٍ طوال تاهت صفية بين ما تريد وبين ما يريده الآخرون ويقوم على أسس اختيار واضحة وسليمة.. ولكنها لم ترَ ولم تلحظ ما تريده هي.. فقد كانت ترغب فيما يرغبون .. و اعتقدت طويلا أن هذا يقينا ما

تريده.. تدافع الدم إلى رأسها وهي تسأل نفسها: "ولكن ماذا أريد؟!"

خبت كل الأصوات الأخرى في رأسها بعد طرحها لذلك السؤال الوجودي، فتحت نافذة السيارة لتنفث الدخان علها تنسى السؤال ولكن هيهات، فمن أبصرت عيناه لا يعود للظلام مرة أخرى..

أمضت صفية ليلتها في نومٍ متقطعٍ، فبين الحلم واليقظة قبع السؤال يطاردها.. وبين السؤال والإجابة ظلت تذكر سنوات عمرها من قبل.. كلها تمر كشريط سينمائي ولكنها كانت تشعر كأنها أول مرة تشاهده.. اختلطت هواجس الماضي وارتطم بحاضرها كما يصفع الموج الصخر على وجهه فترتد الصفعة مرة أخرى له ثم يعود يصفعه مرة أخرى وهكذا حتى يتآكل الصخر من كثرة الصفع..

انبعث ذلك الصوت في نفسها :"كيف ومتى وأين ولماذا؟ لست أدري.. ولا أتذكر ولا أريد أن أتذكر.

أسير ولا أدري كيف أصبحت أو أمسيت؟ ها أنا ذا بعد سنواتٍ طويلة من الزمن لا أقوى على استيعاب ما حدث فكأنما تركتني حياتي ومضت.. أتمنى لو عاد الزمان إلى الوراء أو صرت تحت الأرض أنا..

فإني إذا نظرتُ لانعكاسي في المرآة أرى خيال امرأة.. ولكن من؟ وماذا أنتظر؟

لا شيء.. صدقا أو عبثاً.. لا شيء، فقد مضى الركبُ.. ولم يبقَ إلا بعض الأثر

بين الرمال خُطت لحينٍ.. حملته الرياح بين ثناياها.. وتركتني في صحراء جدباء

بلا خلٍ ولا ماء..."

وأخيرًا غفت..

تسلل الضوء من زجاج حجرة صفية كما تسللت روحها مرة أخرى لها بعد ليلة البارحة. فتحت عينيها المرهقتين وقد التصقت رموشها ببعضها البعض من

كثرة البكاء. كانت تشعر أنها أول مرة ترى، تأملت نفسها في المرآة وعلى الرغم من إرهاقها الشديد شعرت أنها تبدو جميلة فقد كانت تنظر لنفسها بعينيها وليس بعيني الآخرين، وكأنما الليلة الماضية أخرست كل أصواتهم وآرائهم في رأسها إلى الأبد.

تصاعد صوت الأولاد من حجرتهم فقد كان عليها أن تجمع شتات نفسها من أجل أولادها حتى لا يشعروا بشيء.. غسلت وجهها بعنف علّ قطرات الماء تجعلها تفيق...

"هيا يا أولاد استعدوا للمدرسة "

صاحت لينة من تحت الغطاء: "ولماذا نذهب للمدرسة؟ لماذا؟ لا أريد أن أذهب!"

أجابتها بلا تردد :"عليكِ الذهاب للمدرسة كي تكبري وتذهبي للكلية من بعدها وتصيري مثل أبيك و ..."

ابتلعت لسانها فجأة ولم تكمل..

لينة: " وماذا أيضا؟ أتزوج؟! "

شردت للحظات ولم تجبها وذهبت لتكمل تحضير سندوتشات المدرسة.

أخـذت تحـدث نفسـها بصـوتٍ خافـت "أرأيتنـي كيـف أخطـط لهـا وأنسـج لهـا ال "البـاترون " الـذي ستسـير عليـه؟!" لابـد أن أتوقـف.. لابـد مـن إيقـاف تلـك اللعنـة... لعنـة تناسـخ الحيـوات بـنفس الفكـر والقالـب ولكـن بـأفراد أخرى"

"مـاذا تـأكلين يـا صـفية؟" يهـبط ذلـك السـؤال علـى مسـامع صـفية منـذ الصـغر كالسـياط يعـذبها مـن ذنـب لا تدري إذا ارتكبته أم لا.. وإجابته كانت دائما تكفيرًا عنه.

منـذ سـن صـغيرة كرهـت صـفية الاختيـار.. تكـره أن تُخيّر ولا تدري لماذا! كلما خُيرت احتـارت.. وإذا اختير لها غضبت برهة ثم لم تلبث أن تستسلم..

- "مكرونة"

أمي: " كل يوم؟! وزيادة الوزن؟!"

❊ ❊ ❊

" أيهما تختارين؟ القميص الأسود أم الأبيض؟"

- الأبيض.
- و لكن ألن يتسخ سريعا؟

❊ ❊ ❊

" إلى أين نذهب؟"

- " إلى السينما"
- " ألا تفضلين النادي؟"

❊ ❊ ❊

كلها أسئلة مشكوك في إجابتها.. فأصبح السؤال أزمة؟ بم تجيب؟ بِمَ تريده؟ أو بم تدرك أنه سيعجب أمها؟

دائمًا ودومًا كانت اختياراتها المنتقاة تحت المجهر وقيد التشكيك.. حتى اختيار طريق السيارة.. فإذا

اختارت طريق الكورنيش وكان مزدحمًا.. صار طريق (شارع أبو قير) أفضل والعكس صحيح.. ربما كان الطريقان مزدحمين ولكن الشعور المستمر بأنك حتما في حزب من خاب سعيهم وضلوا سبيلا يستنزفها مع الوقت ويولّد الحاجة المستمرة في طرح أسئلة مثل:" هل أنا في الطريق الصحيح؟ هل يعجبك اختياري؟ هل أحسنت صنعا؟ " وكلما اختارت أو فعلت الأشياء التي تلاقي إعجابًا لدى والديها بالنص وبالحرف كلما سمعت أذناها مدحًا وإطراءً لا تسمعهما في الأحوال الأخرى.. أدمنت المدح وأغرقها في حالة من المتعة الزائفة ظنا أن تلك الاختيارات اختياراتها.

٢

دائمًا وأبدًا كانت المدرسة بمثابة المنزل الثاني وأصدقاء الطفولة هم إخوتنا من آباء وأمهات آخرين. نقضي في هذا المكان السنوات الأولى في الحياة والعقل مازال عجينة رخوة قابلة للتشكيل والروح لا تزال صبية هشة. كانت صفية طفلة ذكية إلى حدٍ كبير ولكنها كانت كثيرة الحركة وتميل إلى المشاكسين من التلاميذ وتحب مصاحبة الأطفال ذوي الحضور والتأثير في الفصل وتفر من الهادئين الملتزمين.. مما كان يؤدي إلى مشكلات لا حصر لها مع والديها.. إذ كان لهما تقييم في اختيار الأصدقاء وجدته صفية آنذاك غير منطقي بالمرة. فقد كانت تتعاطف مع البنات ذوات المشكلات

النفسية بسبب ظروف سيئة تعرضن لها في البيت أو غير ذلك، ولم يكن والداها ينهرانها أو يعنفانها ولكنهما كانا يزرعان في عقلها أفكارًا عن كيف أن أغلب الناس لا ينطقون بالحقيقة فربما يكون تعاطفها في غير محله، فإنهم إذ لم يكذبوا بقصد فقد ينسجون حكايات وهمية يعتقدون أنها حقيقة وأن من الأفضل أن ننأى بأنفسنا عن هؤلاء فربما أدركنا بعض الضرر نحن في غنى عنه. لم تستطيع صفية أن تصدق أن مثل هذه الكائنات الصغيرة التي تجلس بجوارها كل يوم تكذب عن حياتها.. أو حتى تتخيل ما تسرده عليها.

كانت تحب تلك البنت "بسمة" التي كان يضربها أبوها كثيرًا وكانت تأتي في كثير من الأيام تبكي وقد امتلأ جسدها بالكدمات كانت صفية تستمع إليها وتهون عليها وتحب مصاحبتها ولكن كان كل شيء حولها يُملي عليها تركها وإن لم يكن بالأمر المباشر، كان بنظرات هاربة من عيون التلميذات الأخريات ومن مصمصات شفاه المدرسات ومن كلمات والديها المحفوفة بالشفقة ولكن مدلولها الأول والأخير يقضي بالهجر والترك.

من هن صديقاتها؟

سوسن ابنة اللواء عصام أبو الليل وليلى ابنة المستشار عدلي المراسي في مجلس الدولة ودنيا ابنة الدكتور هشام الصاوي.. وأخريات كن من النماذج المسموح لها بمصاحبتهن وإطلاق لفظ "صديقة" عليهن.

وماذا عن بسمة؟ وأسماء؟ وهبة؟

"ولكن يا صفية هؤلاء ظروفهن لا تناسب ظروفنا"، " ثم نحن لا نعرف أصلهن وفصلهن" ، "ربما كُنّ طيبات ولكننا لا نعرفهن" و "على العموم افعلي ما تريدينه "، " لك مطلق الحرية ولكن لا تعودي فتندمي" وعبارات مثل هذا القبيل التي تَنْصَب في طريق أن صفية عليها أن تصادق من تعرفه العائلة وظروفهم الحياتية شبيهة بهم ورسميا متروك لها الحرية فيما تفعله ومن تصادقه أو هكذا بدا لها، ولكن فعليا لم تستطع صفية أن تكسر ذلك الحاجز في نفسها الذي زرعته تلك الأفكار فكانت أكثر قوة من الأمر :"لا تفعل" ولم تحاول أن تقوم بتجربة تستحق الذكر خارج أسوار الأصول المقام حولها.

عندما اقتربت صفية من مرحلة الثانوية العامة وكان عليها الاختيار ما بين التخصص الأدبي والعلمي لم تشعر حتى بأن الأمر مطروح بأن تفكر في احتمال آخر غير الأدبي الذي يفضي بالتالي إلى كلية الحقوق، فقد كان عليها أن تحمل راية المستشار رياض الهمشري عبر أروقة النيابة الإدارية حيث إنها لم تكن الولد البكر الذي انتظره والدها وأمِل أن يُكمل مشواره في النيابة العامة..

بالرغم من حصولها على مجموع كبير يتيح لها دخول كلية السياسة والاقتصاد أو الإعلام أو حتى الألسن.. لم تفكر للحظة أنها قد تكون سببًا في إحباط والديها وضياع أملهما في امتداد اسم العائلة الكريم في السلك الحقوقي. فتطوعت عن طيب خاطر أن تتسجل في صرح العدالة آملة أن تجد ضالتها في ذلك الطريق الجديد.. كانت تهوى اللغات كثيرًا وروادتها الكثير من الخيالات أن تصير ربما مذيعة في يومٍ من الأيام، ولكن أمام نظرات والديها التي يملؤها الرجاء يشوبه بعض من الإجبار غير الملفوظ وجدت صفية نفسها طالبة بكلية الحقوق. لم تكن صفية حالة نادرة بالكلية فكان هناك الكثير منها.. أتوا حاملين على رؤوسهم رغبات مَن شابَ رأسهم وحني ظهرهم وقد تكوّم حلمهم تحت أقدامهم فلم يعيروا له اهتمامًا فقد حفه التراب منذ أمد طويل..

أما بالنسبة للأصدقاء في الكلية فلم تواجه صفية مشكلة مثل تلك التي واجهتها في المدرسة، فقد أُشربت الدرس جيدا في الصغر و لم تشكل مقاومة طوال سنوات الدراسة.. هدف واحد كان نصب عينها هو التفوق من أجل التعيين في النيابة، فبالرغم من الواسطة كان لابد من إحراز مجموع معين حتى يتم قبولها في النيابة.

٣

ذهب الأولاد إلى المدرسة في ميعادهم مثل كل يوم، وجاءت صابرين التي تعاون صفية في أشغال المنزل مثل كل صباح. صابرين امرأة مجتهدة في الثالثة والثلاثين من عمرها تكبرها بأربع سنوات تقريبا متزوجة منذ خمسة عشر عاما نازحة من الدقهلية من ميت غمر مركز كوم النور، مات عنها زوجها وكان عليها تربية أبنائها الثلاثة وحدها أو إنها تتزوج من أخي زوجها الذي كانت تكره فهربت إلى الإسكندرية حيث عاشت عند خالتها التي كانت تعمل لدى والدة صفية لعقدين من الزمان وأحضرتها لتعمل لدى ابنتها عند زواجها. كانت صفية ترى في صابرين الأخت والمعين

والصديق برغم اختلاف الطبقات. فربما كانت هي بوابة صفية لرؤية أوساط أخرى تعاني مما تعانيه ولكن بصور أخرى. دخلت صابرين ذلك الصباح، حول عينيها سواد ويبدو أنها أمضت ليلتها باكية. على الرغم من قرب صفية وصابرين، لم تكن العلاقة بينهما تمتد إلى ما وراء العينين أو إلى ما سكن في القلب، ربما تحادثتا في الأمور الحياتية كأحداث ولكن لم تتجاوز أبدًا حواراتهما سطح المياه الراكدة. فقد أوصاها أبوها دائما بالسطحية وعدم التعمق أو التطرق إلى دواخل النفوس؛ لأن المرء لا يدرك كيف يمكن أن يستفيد الآخرون من معرفة تلك المعلومات.

ولكن ذلك الصباح، شعرت صفية بشيء داخلها يدعوها لتحطيم ذلك الحاجز الوهمي الذي حال بينها وبين العالم وليس فقط صابرين، وقد اتتها الفرصة على طبق من فضة.

"ما بك يا صابرين؟" رمت صفية السؤال على استحياء وباقتضاب وكأنها على استعداد أن تعدو هاربة. فوجئت صابرين بالسؤال فلم تدركه في بداية الأمر، ليس لأن صفية صلفة أو ما شابه ولكن لأنها كانت تشعر بنفس الحاجز النفسي وليس الطبقي الذي يفصل

صفية عنها. فلم تفوت الفرصة أو تماطلها بأجوبة (همايونية) مثل "الحمد لله نحمد الله" ، "لا شيء"، " مرهقة قليلا" و لكنها سكبت ما في جعبتها في الحال وأجابت باكية : "سأتزوج!"

-" و لماذا تبكين إذن؟"

-" لأني لا أريد الزواج"

-" لماذا يا صابرين؟ أنت أرملة منذ زمن طويل، وربما حان الوقت كي يصير لكي زوج"

- "هذا ما قاله لي الناس.. خالتي والجيران وأصحاب دار التحفيظ التي أعمل بها بعد الظهر.. وها أنت ذا تقولين لي أيضا" ثم سكتت برهة .." ولكني لا أريد.."

- "إذن لا تقبلي.. أيجبرك أحد؟"

-" لا يجبرني أحد..ولكني لا أملك خيارًا آخر".

- "لماذا؟؟ "

- "لأن كل شيء حولي يملي عليّ أن أتزوج حتى الجدران التي أسكنها وتسجن روحي تكاد أن تهتف :تزوجي! لقد عانيت من الأمر من قبل في زواجي

الأول حيث كنت قد بلغت السن التي يتزوج فيها بنات جنسي في بلدتنا" وأعود لأعاني من نفس الأمر الآن"

- " ولكني لا أفهم كيف لا يجبرونك ولكن لا خيار لديك؟"

- " بائع الجرائد أسفل البيت وبائع اللب في أول الشارع والبقال يصبّحون عليّ كل يوم وفي عيونهم رغبة مستترة يفضحها سؤالهم عن زواجي المزعوم أو عبارات التعاطف من الجيران التي قد تبدو أنها تنبع بهدف الحب ولكنها في الحقيقة تذكرني كل لحظة بأني (يا حرام ليس لي ظهر وصيد سائغ للطامعين) أهالي أولادي في المدرسة يذكرونهم دائما أن مهما فعلت أمكم من أفعال الرجال لن ترتقي لمنزلة الذكر وأن لا سبيل للكرامة إلا أن يكون (في بيتنا رجل) "

سكتت صفية طويلاً، فقد كانت تستمع لصابرين لتعي ما تسمع وليس لمجرد من أجل أن تطلق بعض العبارات التي يطلقها لسانها الملقن ويقوم بتمريرها أوتوماتيكيا دون تفكير..

ولكنها لم تدر ماذا تقول لصابرين فقد كانت هي نفسها خالية الوفاض..

كان اليوم هو الخميس، يوم اللقاء الأسبوعي للتجمع في بيت والديها، ومثل كل أسبوع يتجمع أفراد العائلة في موعد الغذاء حول مائدة الطعام يترأسها سيادة المستشار وتجلس على يمينه السيدة خديجة البرقوقي يجاورها أخوها الأصغر وأختها الوسطى هالة وعلى يسار والدها قبعت صفية وحازم والأولاد..

في أثناء تجاذب أفراد الأسرة للحديث والمزاح حول جودة طعام الوالدة حيث جرأت هالة أن تقلل من قيمة صنع أمها وتتهمها بالروتينية في الطبخ .. جاءت كلمات الأم تسخر منها:

"أرينا كيف ستطبخين في بيتك أيتها الذكية وها قد جاءتك الفرصة تحت قدميك وما عليك إلا أن تقبليها"

أجابتها هالة بحدة " عن أي فرصة تتحدثين يا أمي؟! عن ابن عمرو بك الوكيل؟ فرصة لمن بالتحديد؟ لي؟ أليس أنا من يحدد ! "

جرت همهمة جانبية على الطاولة بين صفية وحازم وأخيها أحمد.

-"عن أي فرصة يتحدثن يا أحمد؟" سألته صفية همسًا وسط كل تلك الجلبة التي أحدثها النقاش.

ابتسم أحمد ابتسامة خبيثة وهو يقول: "عرييييييس"

فضحك حازم قائلا :" جالك الموت يا تارك الصلاة"

رمقته صفية قائلة :"موت؟؟!!"

أجاب مصححًا مساره: " جالها هي، أنا أتحدث عنها هي"

لم تعِر الأم انتباها للحوار الجانبي وعادت توجه الخطاب لهالة:" أنا لست أدري ماذا حدث لك، ما سر ذلك الرفض الدائم؟ وما سبب تلك الثورة؟ لست أذكر أن أيًا من ذلك حدث مع أختك صفية!"

هالة:" ولكني هالة يا أمي لست صفية، أنت لا تصكين عملة لكي نصير واحدًا"

الأم لم يبدُ عليها أنها فهمت كلام هالة فأكملت في نفس الاتجاه:" انظري لها كم هي سعيدة"

هالة :" صفية سعيدة؟! أحقا ترين ذلك يا أمي؟! لأني لا أرى ذلك حتى لو لم ترَ صفية نفسها!"

امتعضت الأم من هجومية هالة وطريقتها فأخذت دور الحكيم قائلة :"وماذا تعرفين أنت عن السعادة كي تجزمي بسعادة صفية أم لا أو بسعادتك أنت؟"

أبت هالة أن تنجرف في هذا الاتجاه من الحوار مع أمها عن معنى السعادة فأجابتها باستنكار "وهل تدركين معناها أنت يا أمي؟ "

-" بالطبع! أنا أمكم !"

-" ولكن هذا السبب لا يكفي يا أمي"

-"بل يكفي ! أنا أدري منكم "

ظلت صفية تراقب ذلك الحوار المحتدم بين أختها الصغيرة وأمها. ذلك الحوار الذي يدور جزء كبير منه حولها وعن سعادتها هي! ظلت تتنقل بين الاثنتين بعينين تحتاران وتتساءلان تارة وتغضبان تارة أخرى فقد كانت هي صاحبة الشأن ولم تجد جوابًا عن السؤال الذي طرحته هالة بل لم تطرحه هي على نفسها من قبل: هل أنا سعيدة؟!

تدخّل الأب قائلا : "كفي يا هالة! سنتحدث في الأمر لاحقا"

هالة:" ولكن يا أبي ..."

قاطعتها نظراته الحادة فسكتت.. ثم رن الجرس في نفس الوقت فذهبت لفتح الباب، ترك الحوار وراءه أثرًا عجيبًا في نفس كل الجالسين ولكن أكثرهم تأثرًا على الإطلاق كانت صفية.. بين رفض هالة ويقين خديجة، وجهت نظرها لزوجها حازم وهي تتساءل بداخلها ماذا يظن هو؟ هل هو سعيد؟ هل يراني سعيدة معه؟ وهل بالفعل أنا سعيدة؟

ومن وسط هواجسها انتزعها صوت أخيها الضاحك الذي يحاول أن يخفف من وطأة المناقشة:

" لست أدري كيف تنشغلون بمثل تلك الأمور وتتركون مثل هذه الحلوى الذيذة! سلمت يداك يا صفية سأفنيها عن آخرها "

في طريق العودة إلى المنزل، حيث صمت صفية وحازم ، يعلو أصوات الأولاد من الكنبة الخلفية وهم يصيحون ويضحكون " خالة هالة ستتزوج ! خالة هالة ستتزوج!"

عنفتهم صفية :" اصمتوا لازلتم صغارًا بعد، لا تتحدثوا في مثل تلك الأمور"

أجاب حازم : "اتركيهم يا صفية لم يعد أحد صغيرًا الآن، لا يمكن إخفاء مثل تلك الحقائق الكبيرة عنهم، هذا جيل واعٍ ليسوا مثلنا !"

نظرت له صفية من جانب عينها وأضافت : " وما بنا كي لا يصيروا مثلنا؟!"

-"انظري لنفسك ! تتحدثين مثل أمك الآن"

-"قل لي ما رأيك في موضوع هالة؟"

-" ما رأيي؟ لماذا؟ هذا أمر لا يعنيني بتاتا"

-" أدرك أنه لا يعنيك ولكن حتما لك رأي!"

-" بالتأكيد ولكن هل من قوله فائدة؟ "

-"يا حازم لا تتعبني معك هيا قل لي ماذا تظن؟"

- " انظري يا عزيزتي ربما حان الوقت أن تتزوج أختك وربما كان العريس مناسبًا، ولكن من يقرر ذلك هو هالة ولا أحد آخر غيرها، ولكن إصرار والديك يدفعها دفعًا في الاتجاه المعاكس بغض النظر عن حقيقة هذا العريس ربما كان سيئا ولكن سيتم إغفال ذلك الأمر بسبب تحمس والدتك وربما كان جيدا لكن ربما لن ترى

هالـة ذلـك أيضـا بسـبب تطرفهـا الشـديد فـي الاتجـاه المعاكس لأمك، هل تفهمين؟ "

-" نعـم و لكـن مـا لا أفهمـه لمـاذا تأخـذ هالـة الاتجـاه المعاكس لأمـي إذا كـان هنـاك احتمـال صـغير بـأن يكون العريس جيدا ؟!"

-" لـنفس السـبب الـذي تـرفض فيـه لينـة أن ترتـدي مـا تختارينه أنت لها "

سكتت صفية محاولـة أن تستوعب حديث زوجهـا.. فبداخلها صوت أمها وصوت أختها يتناطحان وهي لا تدري أيهما على حق فهي لم تضع كلام أمها من قبل قيد الشك وفي نفس الوقت هي تحب أختها كثيرًا فقد كانت دائمـا مـا لـم تكُنـه صـفية.. كـل شـيء فيهـا يختلـف عنهـا وربما كان ذلك مصدر إعجاب صفية بأختها الصغرى.. قطعت فرملـة السيارة حبل أفكارهـا.. فقد وصـلوا إلـى البيت.

٤

في الصباح استعدت الأسرة الصغيرة للذهاب إلى النادي مثل كل جمعة، فقد تكوّم معظم التمارين الرياضية للأولاد في عطلة نهاية الأسبوع. وقد كانت فرصة صفية وحازم للقاء أصدقائهما و"الدردشة" معهم أثناء غياب الأولاد في التمرين. يوم الجمعة كان اليوم الشهير للتظاهر الاجتماعي، التظاهر بالثراء، التظاهر بالأهمية، والأهم التظاهر بالسعادة! كلٌ يبذل – لا شعوريًا بالطبع - أقصى ما في وسعه كي يبدو في أبهى صوره.

لم تكن صفية ترى ذلك بالتأكيد ولكنها اليوم تمتلك عينين غير ذي قبل.. جلست هي وحازم في الأماكن المخصصة للأهالي بين ممرات ملاعب التنس حيث يتدرب خالد ولينة. جلس إلى جانبهما علي الصحن وزوجته فريدة فايد، وماجد علواني وزوجته إيمان السعدني وآخرون، ولكن هؤلاء كانوا الأقرب لحازم وصفية.

لأول مرة شعرت صفية أنها تحاول أن تقرأ ما بطن وراء ما يقول أصدقاؤهم وليس ما ينطقون به أو يظهرونه.. أخذ سؤال هالة أختها يرن في أذنيها وهي جالسة بينهم "هل تدركين معنى السعادة؟"

تأملتهم وهي تتسأل في نفسها "هل فريدة سعيدة؟ هي ربة منزل ولا تعمل، أراضية هي؟ هل اختارت ذلك؟ أم فُرض عليها؟ هي دائما ما تقول: الحمد لله أني لا أعمل فأنا لا أطيق الاستيقاظ مبكرًا، أصحيح ذلك؟ أليس هناك أسباب أخرى؟"

-" ما بك يا صفية اليوم تبدين مختلفة؟" سألتها إيمان بابتسامة عذبة هادئة كطبعها.

-" لا.. كل شيء بخير لا تقلقي، كيف أحوالك أنت؟ سمعت أن ابنك يتعلم اللغة اليابانية صحيح؟"

-" نعم صحيح، فهو يطمح أن يسافر و يعيش في اليابان عندما يكبر"

-" ولكنه يا إيمان مازال صغيرًا، أين نحن الآن؟ لازال الوقت بعيدًا، ربما ينسى حتى تلك الفكرة".

اعتدلت إيمان في جلستها قائلة لها بجدية" لا يا صفية ولكنها أحلامه لن أجازف، لا يجب إهمال مثل تلك الأفكار لدى الأطفال فهي توجهنا وتوجههم لما يريدونه"

-"ربما.." لم تستوعب لوهلة فكرة إيمان واستخدامها لكلمات مثل "أحلام" و"تجازف" فسكتت وأخذت تتابع تمرين الأولاد..

وبينما انشغل حازم وماجد وعلي بحديث الرجال، ذهبت السيدات الثلاث إلى دورة المياه، في الطريق لمحت صفية من بعيد زميلتها السابقة "همّت المراسي"، شردت صفية في ذلك اليوم الذي استقالت فيه زميلتها فجأة وبمحض إرادتها من عملٍ حكومي مستقر واختفت بعدها تمامًا.

تحركت سريعًا تاركة صديقاتها فجأة وراحت تعدو تجاهها صائحة باسمها بكل حماس استغربه أعضاء

النادي من حولها.. فقد كانت همت تحمل حل اللغز. التفتت همت:

-"صفية ! عزيزتي يا لها من مفاجأة سعيدة!"

-" كيف حالك يا همت؟ اختفيت هكذا!"

-"اعذريني يا صفية، قد اتخذت قراري آنذاك ولم أشأ أن يثبطني أحد، فقد كنت جمعت كل قوتي ولم أرد أن أضعف"

- "ولكن كيف فعلت ذلك؟ ووالدك.. هل وافق؟!"

"لم أفكر، لقد كان يراودني حلم العمل في السلك الدبلوماسي منذ سنوات فتقدمت لأداء امتحانات الخارجية دون أن أخبر أحدًا، فأنا أريد ترك ذلك البلد. فلما نجحت وجاءتني الوظيفة لم أفكر، قدمت استقالتي في الحال وأبي لم يعرف إلا بعدها"

-" وستسافرين؟"

-" ليس في الحال ولكن ربما خلال سنة "

-" لا أتخيل كيف يمكن حدوث ذلك؟ "

-" حبيبتي صفية، لم يكن هناك مفر إما أنا أو الناس! والعمر يمضي، إلى متى سأنتظر؟ نحن نكمل الثلاثين ذلك العام، ألم تلحظي؟"

-" نعم أعرف ذلك ولكن هل أنت سعيدة؟ هل هو الاختيار الصائب؟"

-"ليس هناك اختيار صائب واختيار خطأ في المطلق، الصائب لك ليس بالضرورة صائبًا لغيرك والعكس صحيح، أنت الوحيدة القادرة على أن تحددي ولا أحد غيرك"

- " ألا تخافين أن تندمي؟"

-" إطلاقًا حتى لو اتضح مع الوقت أن هذا القرار لا يناسبني سأكون على الأقل اخترت لنفسي ما أريد. الندم يلحق من لم يمد يديه إلى مائدة الحياة ليختار ما يأكله، أما المذاق فهو نسبي"

-" همت أنا لأول مرة أسمع مثل هذا الكلام !"

-" ولن تكون الأخيرة إن شاء الله لابد أن أذهب الآن، أراك لاحقا، هاتفيني لنتقابل مرة أخرى"

ثم استطردت " ومن يعلم؟ رُب صدفةٍ أخرى خير من ألف ميعاد"

رحلت همت وتركت صفية في بحرٍ من الأفكار.. تلاطمتها أمواجه.

٥

يتسلل إلى عيني صفية ضوء الصباح الخافت مثل كل يوم...ولكنه يأتي اليوم بصحبة صديقٍ قديمٍ.. طال فراقه وعز لقاؤه فإنه يأتي مرة كل عام محملاً بروائح الذكريات ويهب بنسيم الطفولة وكل ما فات.. إنه شهر مارس...

في ذلك الشهر تخلع الدنيا عنها رداء الشتاء الثقيل لتتزين بفصل الربيع.. ربما كانت صفية على موعد مع نفسها في بداية كل فصل.. أو ربما ألهمتها البدايات شيئا ما لتعود حيث تركت نفسها وتستأنف من جديد..

في أول كل مارس، تستيقظ صفية على تلك الرائحة.. وكأنما يبث الشهر لها موجات لتستشعر بقدوم يوم ميلادها.. وإن كانت هي تعتقد أن شهر مارس يبعث بتلك الرسائل للجميع.. لكنها رسائل فردية.. كلٌ يتلقى رسالته الخاصة به.. أما عن رسالتها.. فجزءٌ كبيرٌ منها يتعلق باليوم الرابع عشر الذي أذن الله فيه منذ ثلاثين عامًا بفتح أبواب الدنيا لاستقبالها.

تذكر في نفس هذا الوقتِ وهي طفلة - ربما في الثامنة - أنها كانت تنظر من خلفِ زجاج بيتها ترقبُ قدوم هذا الشهر وفي قلبها انتظار.. انتظار سن التاسعة.. وعلى لسانها هذا التساؤل: ماذا حل بها من الثامنة إلى التاسعة؟ ماذا أصبحت؟ فقط انتقلت من الصف الثاني إلى الثالث؟ وهل هذا إنجاز يستحق الاحتفال؟ ولماذا تحتفل وفي قلبها كل هذا الشجن والحزن؟ لم تدر ما سره.. ولكنها تذكر جيدًا ملامح والديها السعيدة وهما يداعبانها بأنه شهر يوم ميلادها.. وعلى عكس المتوقع تنتابها حالة عجيبة تمتزج فيها ومضات من الأمل والسعادة ربما لأنها ستحصل على بعض الهدايا والاهتمام ولكن لا يلبث أن يغرق هذا الأمل في موجة من التساؤل الشجيّ حول حقيقة وجودها على تلك الأرض.

ربما كانت صغيرة جدًا على هذا النوع من الأسئلة ولم تدرِ لِمَ قد يأتي على خاطر طفلة في الثامنة أو التاسعة مثل هذا النوع من الأفكار؟ تلك الأفكار والأسئلة التي لم تترجمها فعليًا إلى كلمات إلا بعد سنوات، ولكنها تذكر جيدًا انبعاثها في داخلها وبين جوانحها في ذلك الوقت..

كانت تتساءل هل وجودها هنا.. أنها ابنة لهذا الرجل وهذه المرأة مجرد صدفة؟ ولِمَ لم تكن ابنة أي زوجين آخرين؟ لم تكن تسأل لتعترض ولكن الفكرة كانت تجول دائما بخاطرها.. أحيانًا أخرى، كان ينتابها هاجس عجيب.. ماذا لو أن أباها قد تزوج من أخرى غير أمها أو تكون أمها قد فعلت ذلك.. لأي منهما كانت ستصيرُ ابنة؟ أم أنها لم تكن ستصير وتُخلق من الأصل؟!! وكيف لا تكون؟ وهل كانت ستدرك أنها لم تُخلق؟؟ بمعنى إذ لم يُخلق هذا الجسد الذي تلمسه وتراه، هذا الذي لا تراه بداخلها ولكن تشعر به، أين سيكون؟ هل كان سيُودع جسدًا آخر لابنة أخرى؟؟!!

مثل هذه الأفكار - من بين أخريات كثيرة - كانت تقتلها وربما كانت هي مصدر الحزن.. احتضنت مثل

هذه الافكار بين جوانبها لسنوات ولكنها أبدًا ما أودعتها شفتيها..

مع الوقت وبمرور عدة سنوات، بدأ مفهوم حبات العقدِ يتجسد أمامها.. هذا العدد التصاعدي من الأرقام – الذي يسمى سنها- ما هو إلا عدد تنازلي لحياتها وعمرها...

لم تكن تدرك المعنى الحقيقي لامتلاك الحياة والعمر، الآن وهي على أبواب الثلاثين من عمرها وقد بدأت تشعر أنها حياتها وأنه عمرها.. بدأت تتساءل لماذا لم تشعر من قبل للحظة بذلك؟ لماذا لم تفهم ذلك بوقتها؟ لماذا لم يشرح لها أحد ما تملكه؟ ربما ما بقي ليس بالكثير أو هكذا كانت تشعر.. ولكن بقي سؤال تردد صداه في أعماقها: الآن وقد عرفت... ماذا ستفعل؟ وهل تلك المعرفة ستفرق في اختياراتها؟

ظلت صفية تنتظر رسالاتها حتى الرابع عشر من ذات الشهر.. رسالات تنبض برحيق الماضي وتخفق بآمال المستقبل..

تصادف أن الرابع عشر وافق يوم الخميس، يوم اللقاء العائلي، أعدت خديجة ما لذ وطاب، فقد امتدت طاولة الاحتفال بما تشتهيه الأنفس توسطتها "تورتة" من نفس المحل الذي اشترت منه صفية حلوى رأس السنة. دعت إخوتها وإخوة زوجها إلى الاحتفال، فقد كان حدثا غير كل عام، فإن ابنتها تخطو أول خطوة لها في مطلع الثلاثينيات التي كما وصفت الأم بألفاظها " أحلى أيام حياتي" نعم حياتها هي!

جاء المدعوون وصفية وأسرتها الصغيرة.. كانت ممنونة كثيرًا لتعب أمها وتخطيطها من أجل اليوم، ولكنها لم تكن تريد الاحتفال، ولكنها لم تكن لتعرب عن هذا الشعور لا من قريب أو من بعيد..

التف الجميع حول المائدة حيث حانت لحظة الغناء، تراصت الشمعات في شكل دائرة تضم عشر شمعات لم تجد تفسيرًا لعددها وإنما هكذا بدا مناسبًا للأم. بدأ الجميع بالغناء لصفية، ارتسمت الابتسامة على وجوه أفراد العائلة إلا صفية فقد شرد خيالها حول تلك الشمعات التي تتآكل من لهيبها وتسقط قطراتها وسط "كريمة التورتة"،

تلك التورتة التي سيأكلها الجميع وربما تنفد عن آخرها وتبقى الشمعات ملقاة على المنضدة متسخة ببقايا الطعام. هكذا رأت صفية سنوات عمرها مثل تلك الشموع المهترئة ملطخة بآراء ورغبات من حولها الذين في الأغلب سيرحلون ويتركونها..

(كل سنة وأنت طيبة يا صفية.. عقبال ١٠٠ سنة.. عقبال كل سنة محققة كل اللي تتمنيه)

مثل تلك التهاني الممزوجة بقبلات أهلها جعلتها تفكر ما الذي أتمناه في العام القادم؟ وهل ١٠٠ عام هو قمة آمالي؟ أم آمال أي امرئ آخر؟ لماذا جرت العادة التمني ب١٠٠ عام؟ ما هذا الذي يريده الإنسان كي يحققه في ١٠٠ عام؟ وهل السعادة تتم بطول العمر؟ كم من بشر عاشوا قليلا ولكنهم بالفعل عاشوا..

وبالفعل ترك الجميع صفية وبدأوا في أكل الحلوى والاندماج في أمورهم الحياتية الخاصة.. كانت تجلس على (فوتيه) بجانب المدخنة الاصطناعية تأكل نصيبها من الحلوى لتتفاجأ بذراعي حازم حولها هامسًا في أذنها "كل عام وأنت بخير حبيبتي" نظرت له وقد اقترب كثيرًا منها فأخذت تنظر في عينيه بتأمل قائلة له ببطء

"وأنت بخير" فكأنما تراه لأول مرة.. فهي لا تتذكر أنها نظرت له هكذا حتى في يوم عرسها.. كيف تنظر له هكذا إن كانت لم تنظر لروحها ذاتها بتلك الطريقة!

انتهت الأمسية وغادر الحاضرون وودعتهم صفية وهي تتمتم بعبارات المجاملة التي حفظها لسانها ولم يفهمها عقلها أو يعنيها على الأقل وتبقى أفراد العائلة الأساسية.. وفي جلسة حميمة بعد جلبة المدعوين سألت هالة أختها الكبرى:

-" بم تشعرين يا صفية وقد أتممت عامك الثلاثين توًا؟"

ترددت صفية قليلا في الجواب فلم تكن تدري كيف تصف بالكلمات ما تشعر به، فتلعثمت قليلا ثم أجابت " لست أدري يا هالة، أشعر بشيء غريب.. لا أستطيع تحديده أو تسميته"

-" أحزينة أنت أم سعيدة؟"

-"لا أشعر بأي منهما.. ربما مازلت أحتاج إلى بعض الوقت حتى أدرك ذلك الشعور..."

قطعت الأم حديثهما قائلة لهالة "بالطبع سعيدة، هل يوجد أفضل من الثلاثينيات في عمر المرأة؟ سن النضوج والتألق وقريبا سوف تترقى في وظيفتها لتصير

من أصحاب السلطة.. هيا هيا قد تأخر الوقت، اتركي صفية وحازم يا هالة ليرحلا فقد نام الأولاد هنا فلا داعي لإيقاظهم"

وبالفعل غادر الزوجين منزل العائلة بعد أن شكرت صفية والديها على تلك الليلة الجميلة..

نامت صفية تلك الليلة بعد إرهاقٍ و إجهادٍ من التفكير في السنوات التي انقضت من عمرها مثلما ينفلت الماء من بين أصابع اليد مهما أحكمنا ضمهم.. أغلقت عينيها على ليلة الميلاد.. غفل جسدها وإن لم يهدأ بالها وعقلها..

-"استيقظي يا صفية.. قد جئتك بما تحبه نفسك يا حبيبتي.. استيقظي!"

-"جدتي! ولكني لا أريد الاستيقاظ.. اتركيني لأنام قليلا .."

-"ولكن قد حان الوقت يا صفيتي.. هيا هبي وأفيقي.. لا تبددي المزيد من الوقت "

فتحت صفية عينيها ومازال النوم يداعب جفنيها بعد..

-"ولكن إلى أين؟ أنذهب بعيدا؟؟"

-"لن نذهب.. بل ستذهبين أنت !"

-"وحدي؟"

-"نعم.. ربما جمعنا نفس الاسم يا حبيبتي ولكن لن يجمعنا ذات الوقت.. قد قُدِّرَ لك أن ترحلي الآن.."

-"ولكني لا أريد أن أتركك، هلا أتيتِ معي؟"

-"ولكني سبق أن مشيت في هذا الطريق من قبل وقد آن دورك.."

احتضنت الجدة صفية مطمئنةً إياها.. ضمتها بشدة.. حتى بكت الحفيدة"

❊ ❊ ❊

"صفية! صفية! ما بك؟ لماذا تبكين؟" قالها حازم وهو يوقظ صفية..

"ألم يكن ذلك حقيقيا؟"

-" ما هو ذلك؟ بم تحلمين؟"

- " لا شيء! لا أذكر"

لم تشأ صفية أن تخبر زوجها بحلمها.. فقد شعرت كأنما كانت في لقاء سري لا يجب أن يعلم عنه أحد وإن كانت لم تستوعب بعد مغزى الحلم.. كانت لا تزال تشعر بدفء أحضان جدتها التي قد توفيت وهي في العشرين من عمرها وقد سُميت صفية تيمنا بها.. كانت تحبها حبًا جمًّا ربما مثل كل الأحفاد والجدات، ولكن ما جعل علاقتهما مختلفة قليلا هو أن جدة صفية كانت دائما وأبدًا صغيرة بغض النظر عن ذلك الرقم الذي صبغ شعر رأسها بالبياض.. عاشت كل يوم بجسدها وروحها معًا فقد كان لديها القدرة العجيبة على التقرب من أحفادها ذوي السن الصغيرة والتحدث معهم في أمور غير الأمن الغذائي والملابس الثقيلة والمسلسلات العربية كباقي الجدات.

ربما نامت صفية في ليلة البارحة بجسد الثلاثين عامًا وروح تبلغ الستين من كثرة التفكير.. ولكنها – وبعد ذلك الحلم الذي لم تفسره كثيرًا - استيقظت بروح أخف حِملا وقلب أكثر تفائلا وإن كان عقلها لا يدري ما عليه فعله بعد.. ولكن كان يملؤها اليقين أن عليها أن تفعل الكثير..

٦

مضى شهر أو أكثر قليلا على عيد ميلاد صفية، أخذت تبحث فيه عن نفسها في أبسط التفاصيل وأكثرها تفاهة، تلك التي قد تبدو غير ذات أهمية ولكنها تحمل كل المعنى لها..

فمثلا كانت تذهب إلى العمل عن طريق الكورنيش مع أن مكان عملها يقتضي الذهاب عن طريق (شارع أبو قير) داخل المدينة لكنها أدركت أنها تحب أن ترى البحر في كل صباح وأنّ خمس عشرة دقيقة إضافية لن تنهي العالم والقليل من الزحام ليس بالسوء الذي يصفه زوجها حازم، فتلك الدقائق التي انتزعتها من الأربع

والعشرين ساعة كانت اختيارها هي فقط.. ولكنها لم تخبر أحدًا بها..

كانت صفية دائمًا ما تلبس الألوان الفاتحة لأنها كانت سمراء وكانت تتجنب اللونين الأحمر والأسود، فقد أكدت لها أمها أنهما لا يليقان ببشرتها.. لم تفكر مطلقًا في مدى منطقية هذا الرأي، فقد كانت تنفذه بطريقة ميكانيكية دون مناقشة، فلم تشعر حتى برغبة في ارتداء مثل هذه الألوان.. إلى أن ابتاعت في أحد الأيام فستانا أحمر قد راق لها وإن لم تجرؤ على أن ترتديه فلم تكن على استعداد أن تتحمل عبارات النصح والإرشاد الممزوجة بمسحة من اللوم. فقد كانت لا تزال تتخبط بعد بين ما كانت عليه وبين ما تريد أن تكونه.. ففي بعض الأوقات يعلو صوت التوجيه وهي غير واعية به.. مثل اليوم وهي تستعد لزيارة ابنة خالتها بمناسبة زواجها حديثا.

خالد:" أمي سأرتدي طاقم الرياضة الجديد"

صفية:" و لكنه غير مناسب يا خالد!"

خالد:" لماذا؟؟ ولكني أريده!"

صفية:" اسمع ما أقول ولا تناقشني فليس لدينا وقت لذلك"

خالد:" ولكن اشرحي لي فقط لماذا ؟!"

صفية:" هكذا! لأن هذا لبس النادي"

خالد:" نعم أعرف ذلك ولكن لماذا لا أستطيع أن أرتديه في مكان آخر؟"

صفية :" لأن ....."

ثم سكتت قليلا وأخذت تفكر وتحدث نفسها.. لماذا لا؟ فليرتدِ ما يشاء! ماذا سيحدث غير أني سأسمع كلمات تأنيب ربما من بعض الكبار؟ الأمر لا يستحق كل هذا..

صفية:" كما تريد إذن.."

خالد:" ألست غاضبة؟"

صفية:" لا.."

فرح خالد كثيرًا بالتغيير المفاجيء وكان قد أوشك أن يستسلم ويرتدي ما اختارته أمه..

❊ ❊ ❊

اجتمع أفراد العائلة الكبيرة عند ابنة خالة صفية ليباركوا الزواج إما بالهدايا وإما "بالنقوط" كما جرت العادة.. مريم.. لازالت تطأ أولى خطواتها في ذلك العالم الجديد الذي تقتسمه مع رجل لا تدري بعد كيف سيكون نصيبها معه..أخذت صفية تتأمل ملامح العروس الجديدة، فقد خط التفاؤل والتساؤل طريقهما حول عيونها، فقد تزوجت ابن زميل أبيها الذي التقت به في صالونات البيتين.. عادت صفية بالذكريات عشر سنوات للوراء حيث كانت هي مكان مريم تبلغ من العمر عشرين عامًا.. كم كانت صغيرة! دارت الأفكار في رأسها حول هذه القرارات المصيرية التي نتخذها في تلك السن المبكرة.. الزواج وحتى اختيار مجال العمل عن طريق الثانوية العامة..

-" حبيبي خالد، كبرت سريعا! أترين السنين كيف تمضي يا صفية؟ لقد هرمنا وكبر الأولاد! الله يحفظهم" تحدثت خالة صفية وهي تقبل خالد وتحتضنه.

-" آمين يا خالتي، العمر يجري سريعا بالفعل"

-" احكِ لي يا خالد، ماذا تريد أن تصبح عندما تكبر؟"

-" أريد أن أصير مستشارًا مثل أبي يا خالة فاطمة"

-" أحسنت يا ولدي ليتك تصير مثله حقًا ومثل جدك أيضا"

حازت أمنية خالد إعجاب كبار العائلة.. فما أفضل من أن يروا امتداد نسل العائلة جيلاً بعد جيل رافعًا راية الأسرة العريقة بغض النظر عمن يحملها وكيف يحملها..

تذكرت صفية عندما طُرِح عليها ذات السؤال منذ أكثر من عشرين عامًا وأجابت نفس الإجابة.. ربما اختلف المكان والحاضرون ولكن الزهو والفخر مازالا مثلما كانا، وهاهي بعد كل تلك الأعوام وأغلب الحاضرين آنذاك قد فارقوا هذا العالم الآن تتسأل: "هل هذا حقًا ما أردت؟ هل أُجيب اليوم بنفس جواب الأمس؟"

-"كيف حال العمل يا صفية؟" سألها خالها الكبير وقد رآها شاردة صامتة.

-" الحمد لله يا خالي، لا جديد"

-" حدثني أبوك عن ترقّيكِ عن قريب"

-" ربما، لست أدري بعد، أنا لا أنتظر شيئا في كل الأحوال"

-" كيف ذلك؟! لا تقلقي، إن شاء الله من نصيبك.. يكفي اسم أبيك وسيرتك الطيبة واجتهادك يا بنيتي. ثم إني تحدث لرؤسائك أيضًا وبالتأكيد سيضعون ذلك قيد الاعتبار"

-" إن شاء الله يا خالي"

انتهت الزيارة وعادت صفية وأولادها إلى المنزل حيث قبعت هي وأفكارها التي فجرتها الزيارة.

جلست صفية أمام المرآة تمشط شعرها الأسود الناعم، وبينما تناثرت خصلاته يمنة ويسرة، لمعت إحداهن في وسط شعرها الداكن، لم تستوعب صفية في باديء الأمر فاقتربت من المرآة أكثر فتراءت لها تلك الشعرة البيضاء، أخذت تمسكها وتتفحصها فتنفلت من يدها وتتوه بين شعرها الكثيف فتفزع صفية وتبحث عنها باستماتة وتعود لتتأملها مجددًا.. فإن لونها لم يتغير فقط بل أصبحت يابسة مثل القش لا حياة فيها.. على الرغم من يقين الإنسان من حقيقة الموت وأن العمر يخط طريقه في رأسه تاركا تلك العلامات البيضاء معلنة دنوه، فإنه يفزع مع أول إشارة..

بقيت صفية تفكر في الخصلة البيضاء طوال اليوم بل واليوم الذي يليه والأسبوع بأكمله، لم تحزن صفية

من فكرة أنها قد تفقد جمالها أو أنه قد يأتي يوم ما تبحث فيه عن خصلة سوداء واحدة في وسط حشائش بيضاء متهدلة وباهتة... و لكن تظل فكرة فوات الوقت ومرور الحياة دون أن تعيشها هي أكثر ما يشغلها ويعذبها.

تذكرت صفية همت المراسي وكيف أنها تركت وظيفتها بعد كل تلك السنوات لتبدأ من جديد.. لم تكره صفية دراسة القانون ولكنها لم تحب وظيفتها في النيابة، لم تشعر بالتآلف مع طبيعة عملها كل يوم، فقد كانت ترغب في أن تعمل بمجال المحاماة وهي بالكلية، ولكن بالطبع لم يكن ذلك مطروحًا أمامها بتاتًا..

ولكن اليوم شيء تغير بها.. لم تعد ذلك الشخص الذي يختار مما طرح عليه فقط.. ولكن بإمكانها أن تذهب وتقتنص ما تريد.. السؤال هل تجرؤ؟!

٧

استيقظ حازم ذلك الصباح مملوءًا بالنشاط، فاليوم مباراة مصر وإيطاليا في كأس القارات، أخذ يرتدي ثيابه في سرعة وهمة كي يذهب إلى العمل ويعود لمشاهدة المباراة مع أصدقائه في المقهى. لم تفهم صفية ما سر كل هذه الحماسة، بالطبع فقد كانت تتأمله باستغراب لتسأله:

" أراك متيقظا اليوم يا حازم هل من أمر مهم اليوم في العمل؟"

" يـا صـفية يـا عزيزتـي، ألا تـدرين؟ البلـد بأكملهـا فـي انتظار اليوم لمشاهدة المباراة"
"أية مباراة؟"
التفت لها بدهشة مجيبا :"مصر وإيطاليا"
"هل هي مباراة مهمة؟"
" مهمة فقط؟؟ هذه مباراة تاريخية !"

لـم يبـدُ علـى صـفية استيعاب أهميـة المبـاراة، فاسـتطرد حازم:
" إيطاليا يا صفية هي حامل لقب كأس العالم الماضي"
أجابتـه صـفية مـن دون اهتمـام " اممم فهمـت وستشـاهده في المقهى أيضًا؟"
-" بالطبع!"
ثم انطلق مغادرًا إياها للعمل..

لم تكن تهتم صفية بالفعل بكرة القدم التـي كانـت بمثابـة عشقٍ حقيقي لحازم.. فهي لم تحاول أن تشاهد مباراة من قبـل، فقـد اكتفـت بـالفكرة المسـبقة عنهـا مـن أبيهـا أنهـا "مضـيعة" للوقت ولا فائـدة منهـا.. وغالبًـا هـي لا تعـرف إذا كانت كـرة القدم مسلية أم مملـة ولـم تكن تـدرك حتـى قواعـد اللعبـة، مجـرد فكـرة بدائيـة عـن أحـد عشـر لاعبًـا وكرة ومرمى!

ذهبت إلى العمل وكان حديث الجميع حول حدث اليوم: المباراة. يستعدون لمشاهدة المباراة سويًا إما مع الأصدقاء أو الأهل، أو في المقاهي أو في النادي.. وفي حوار لزميلة لها في المكتب قالت لها إنها ستشاهد المباراة مع زوجها في المقهى مما أصاب صفية بالدهشة الشديدة.. فقد كانت تعتقد أن كل الزوجات مثلها ومثل أمها وصديقاتها القريبات لا يهتممن بالكرة.

أخذت تفكر صفية، لِمَ لا تحاول أن تشاهد المباراة مع حازم؟ ربما راق لها الموضوع أو على الأقل إذا لم يرقها تكون قد أدركت ذلك بنفسها عن تجربة..

وبالفعل انتظرت حازم أن يأتي من الخارج لتبلغه:

" سوف آتي معك."

- "إلى أين؟ "
- "لمشاهدة المباراة"
- (مندهشا)" أمتأكدة أنت؟ ولكنك لا تحبينها!"
- (بابتسامة مترددة): "لا أدري ربما أحبها، سنرى"
- (لازالت آثار الدهشة واضحة على وجهه): "كما تريدين، ولكن إذا تأخرت سأتركك فلابد من حجز مكان قبل موعد المباراة. ولكن ماذا عن الأولاد؟"
- "لا تقلق صابرين ستظل معهم"

دخل حازم وصفية ذلك المقهى الشهير على الكورنيش، اصطفت السيارات أمامه بالرغم من منع الوقوف، فحتى رجال المرور يشاهدون المباراة. أما المقهى فبمجرد أن وطأت قدمها داخله حتى شعرت صفية وكأنها بداخل مدرجات التشجيع في الاستاد ذاته من كثرة الأعلام وصيحات المشجعين، الجو العام كله كان مبهجا نوعا ما وجديدًا جدًا بالنسبة لها.. تتأمل الناس من حولها لتجد كل الأعمار كبارًا وشبابًا وصغارًا، رجالا ونساء ومن مختلف الطبقات، كلٌ اجتمع من أجل الحدث الجلل !

بدأت المباراة ليهدأ الجميع ويشحذ التركيز حول الكرة التي تتبادلها أقدام اللاعبين، ومع دنوها من مرمى الخصم تتعالى الهتافات المتحمسة، ولكنها لا تلبث أن تنخفض مع القليل من التأفف عند ضياع فرصة لتحقيق هدف. أخذت عيون صفية تتجول ما بين المباراة ووجوه المحيطين بها.. أخذت تُحدِّث نفسها وتطرح أسئلة قد تبدو تافهة: أكُل هؤلاء يحبون كرة القدم؟ هل اكتشفوا ذلك بأنفسهم عن حق أم أحبوها فقط بالتبعية وانساقوا مع القطيع؟ وماذا يفعلون في حياتهم العادية؟ هل اختاروا كل ما فيها؟ هل يشغل بالهم مثل هذه الأشياء أساسًا؟ يقطع حبل أسئلتها رأس حمص وهي تحرز هدفًا عزيزًا في الشباك الإيطالية.

بعد انتهاء المباراة وسط أجواء كرنفالية وفي الطريق للمنزل سأل حازم صفية:" هل أعجبتك كرة القدم؟"

" لست أدري ولكني لم أكرهها ربما أعاود التجربة مرة أخرى"
ابتسم حازم ولم يعلق فقد كان يستشعر تغييرًا طفيفا في صفية يظهر حتى في نظراتها ولكنه لم يكن يدري ما هذا وهل هو مؤقت أم دائم..

٨

أصبحت تمارين الأولاد في النادي من المهام الصعبة على صفية حيث إنها كانت تعيد التفكير في كل مَن وما حولها.. تظل تتأمل وتتساءل حتى يكاد عقلها أن ينفجر.. فهي تسمع بأذن غير ذي قبل وترى بعينٍ جديدة غير التي عهدتها.. وبقدر ما أرهقتها نفسها الجديدة بقدر ما كانت تستمتع بتلك الرؤية، فكأنما استعادت بصرها بعد وقت طويل نسيت فيه كيف يرى الناس.. بل كيف ترى هي..

وأمام تمرين التنس ووسط مجموعة الأمهات، جلست صفية تستمع لحكاوى النسوة وأخبارهن.. إحدى

الأمهات قد حصلت على الطلاق مؤخرًا كانت تتحدث عن الصعوبات التي واجهتها أثناء هذا الحدث الأليم وكيف أن من ساعدتها محامية ماهرة جدًا.. وقفت إلى جانبها بينما لم يقف معها أحد..

-" ربما تعرفينها يا صفية بما أنك تعملين في مجال القانون.. اسمها نادية عامر"

صمتت صفية لتفكر قليلا فكأنما سمعت الاسم من قبل ولكنها لا تتذكر أين..

-" ربما أعرفها ولكني لا أذكر جيدًا"

-" ابنها يلعب تنس هنا معنا ولكنه أكبر سنًا، سأعرفكم ببعضكم حين تأتي.. ستسعدين يا صفية بمعرفتها جدًا ".

بعد نصف الساعة تقريبا، أشارت الأم إلى امرأة تأتي من بعيد قائلة لصفية:

"ها هي نادية قادمة نحونا.. نادية، نادية !"

- " أهلا إيمان! كيف حالك؟ أتمنى أن كل شيء على ما يرام"

- " أنا بخير الحمد لله.. كيف حالك أنت؟ أريد أن أعرفك بصديقة لنا هنا: صفية الهمشري.. تعمل بالنيابة الإدارية، صفية.. ها هي الأستاذة نادية عامر.. أفضل أستاذة في الدنيا"

-" الله يحفظك! هل أنت ابنة المستشار رياض الهمشري أم أنه مجرد تشابه بالأسماء؟"

أجابت صفية مبتسمة :"نعم أنا هي .. أظن أني بدأت أتذكرك، أنت تكبرينني بعامين أليس كذلك؟"
-" بلى، بالضبط!"
-" ألست أنت من كنت الأولى على دفعتك وتركتِ وظيفة المعيد من أجل المحاماة؟؟"
ضحكت نادية:" بلى أنا هي.. من الغريب أنك تذكرتِ ذلك"
-"عندما سمعت اسمك في البداية لم أتذكر ولكن عندما رأيتك تذكرت.. فأنت كما أنت لم تتغيري.. أذكر أن أستاذًا تحدث عن طالبة مجنونة تركت تعيينها من أجل المحاماة، عرفت بعد ذلك أنها أنت".
ضحكت نادية ضحكة التفت لها كل من حولها وقالت:" نعم أنا تلك الطالبة المجنونة!"
ضحكت صفية معها ولكنها لم تعلق، أرادت أن تسألها كيف فعلتها ولكنها سكتت، وكأنما شعرت نادية بذلك فاستطردت:
"ربما اعتقد الجميع آنذاك أنني مجنونة؛ الأساتذة، أمي، أبي ومعظم أصدقائي، ولكن انظري لي الآن.. واعلمي أن كل من نعتني بمجنونة يلقبني بالأستاذة نادية المحامية حيث أصبحت يد العون والمساعدة لهم وفخرًا لهم أيضا.. هل أبدو لكِ مجنونة الآن؟"
ابتسمت صفية ابتسامة صغيرة انطفأت على جانبي فمها عندما تخيلت نفسها في نفس الموقف وقالت:

"ربنا يوفقك يا رب ويحفظك"
-" و كيف حال الدولة ؟" سألتها نادية ضاحكة
-" كما هي لم ولن تتغير"
-" لا تفقدي الأمل، ربما يُحدث الله أمرا"
-" يا رب.."
-" يجب أن أذهب الآن سعدت بلقائك يا صفية وها هي بطاقتي إذا احتجتِ إلى مساعدة محامية مجنونة "
ضحكت صفية وصافحتها "فرصة سعيدة يا نادية، بالتأكيد سنلتقي مجددًا"

٩

اشتدت حرارة شهر أغسطس ذلك العام، لم يلطّف قيظ الحرارة إلا نسائم شهر رمضان ورحماته الذي توافق مع الثاني والعشرين من نفس الشهر.

لم تكن صفية متدينة بالمعنى المعروف، أي أنها كانت تصلي وتصوم ولكنها لم تكن محجبة حيث كانت أغلب النساء في تلك الفترة يرتدين الحجاب.. ولكنها في ذات الوقت كانت متحفظة نوعًا ما في ملابسها، وليس لذلك صلة بالحرام والحلال ولكن لأنه فقط لا يليق! فقد تربت صفية في أجواء غلب فيها العيب الحرام وارتدى الحلال لباس الأصول. أما عن سريرتها التي لا يعلم عنها سوى الله فقد كانت نقية نقاء الأطفال فلم تكن من

ذوي النفوس الخبيثة أو مثل النساء اللاتي يهوين التحدث عن شئون الآخرين ليس لأنها اعتبرت ذلك حرامًا ولكن لأنها لم تكن تميل بطبعها إلى ذلك، فقد كانت مغيبة للدرجة التي لم ترَ بها نفسها أو تهتم بغيرها أو حياتهم..

ولكنها كانت على قرب من الله بطريقة أخرى.. كانت تمد يد العون لأي من يطلبها.. شيء بداخلها كان يدفعها دائمًا أن تلبي مساعدة الآخرين بغض النظر عن الظروف المحيطة بالأمر مما قد يورطها ببعض المشاكل والتي بسببها تسمع تأنيب أبيها حيث شرح لها مرارًا وتكرارًا أن من يعمل في وسط النيابة يجب أن يحتاط جيدًا من الناس ومشكلاتهم ولكن صفية لم تقتنع قط.. ربما كان مساعدتها الشديدة للناس هي الخصلة الوحيدة التي لم تستطع تربيتها أن تطمسها.. فقد كانت ترى في التنفيث عن الوجوه الحزينة ذات العيون الدامعة والضائقة صدورهم مخرجًا من نفسها إلى عالم آخر لم تعهده من قبل.. بالتأكيد صفية لم تكن تدرك ذلك ولكنها كانت فقط تستجيب لذلك النداء الذي طالما انبعث بداخلها منذ طفولتها في المدرسة عندما كانت تحب أن تستمع لمشكلات زميلاتها..

يتجلى في رمضان (شهر الصيام والصلاة والتعبد)..وصل العبد لربه.. ولكن صفية فوق ذلك كانت تتقرب إلى ربها بوصل الإنسان لأخيه الإنسان كعادتها..

كان قد مضى وقتٌ طويل في التخبط والحيرة، فقد هلك فؤادها وتألم بسبب أفكارها التي تغيرت ولا تتناسب مع أفعالها.. ربما استيقظ عقلها لفكرة الاختيار وتفتحت عيونها ولكن التغيير صعب ولا يحدث بين ليلة وضحاها، وخاصة إذا أرادت أن تخوض تجربة الاختيار عن حق في شيء مهم مثل تغيير وظيفتها..

تبتهل إلى الله في صلاة التراويح وقد ركعت وسجدت.. وبين القيام والسجود راودتها أفكار عن إرادة الله ورغبته.. ماذا يريد الله؟ ما الذي يريده لها؟!

ما بين مفهوم الرضا بقضاء الله ومفهوم السعي والكد لتغيير الأقدار تأرجحت صفية أيامًا و ليالي طوالاً.. ران مفهوم الرضا في وسط صفية بطريقة تتلخص في عبارات مثل "كل واحد لازم يرضى بنصيبه"، "محدش بياخد أكتر من حظه"، "هم ٢٤

قيراطًا هتاخدوهم هتاخدوهم" وكلام مثل هذا القبيل.. ولكنها بدأت تتساءل حول فكرة: ماذا يحدث إذا لم تستسلم لهذا "النصيب"؟ هل تصير متنمرة غير راضية هكذا؟

ربما بدا الأمر لكثيرين لم يعانوا عقدة الاختيار مثل صفية أنه أمر تافه، إذا لم تكن سعيدًا فافعل ما يجعلك كذلك.. ولكن المشكلة تكمن في التردد وعدم الثقة في ما إذا كان هذا سيجعلنا سعداء أو إذا كنا نستحق أن نكون سعداء من الأساس.. فقد كبرت صفية وهي تتلقن التبرير"لقد خلقنا الإنسان في كبد" أو أن المعنى الإجمالي للحياة أنها دار شقاء لذلك لا نستطيع أن نلجأ إلى الاختيارات المريحة.. وأن جزءًا من وجود الإنسان يتطلب الألم وتغيير دفة الحياة أمر شديد الصعوبة..

في إحدى الليالي الأخيرة لصلاة التراويح التي سجدت فيها صفية لله ابتهالا وتضرعًا أن يدلها عن بصيص أمل أو إشارة بسيطة تنجدها من حيرتها.. وقفت تنصت للقرآن الذي يتلوه الإمام وأذناها تبحثان بين الآيات عن كلمة أو حرف أو أي شيء يهديها..

وفجأة وجدت ضالتها في سورة التكوير :"وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين"

حتى إنها لم تسمع بقية السورة حتى انتهت الصلاة..

بقدر ما استحوذت عليها الآية لم تدرك مغزاها الحقيقي..انبعث ذلك الحوار داخلها:

"كيف لا نشاء إلا أن يشاء الله؟؟ هل معنى ذلك أننا مجبورون على ذلك؟ إذن لماذا نسعى؟

وكأنما سمع الإمام حيرة صفية فبدأ في شرح الآيات التي تلاها في الاستراحة بين ركعات التراويح.. وعندما بلغ تلك الآية كانت صفية قد وصلت إلى قمة الصراع في داخلها فجاءت كلماته تفصل في أمرها:

" أنا أعلم تمامًا ما قد يظنه المستمع في تلك الآية وأن المغزى منها قد يختلط عليه، ولكن المعنى بسيط جدًا، جاءت مشيئة الله أن تكونوا أصحاب مشيئة، لولا أن الله شاء لكم أن تكونوا أصحاب مشيئة لما شئتم، ليس معنى الآية الجبر ولكن معناها الفضل، وفرق كبير بينهما.. إن الله قد شاء وأذن لكم أن تشاءوا.. كانت إرادته إذن أن تصيروا أصحاب إرادة و مشيئة"

هدأت روح صفية بهذا التفسير وشعرت كأنما الله يخاطبها ويأذن لها أن تستخدم مشيئتها التي منحها إياها بمشيئته.. أدركت رحمة الله وحكمته، فعلى الرغم من أن الله قادر أن يجبرنا بمشيئته ولكنه سمح لنا أن نستخدم مشيئتنا كيفما شئنا.. ولكن بقي سؤال يتردد في نفسها: "إذا كان الله ذو الجلال والإكرام منحنا ذلك الحق، فلم قد يحرم الإنسان أخاه هذا الحق؟!"

بعد الأيام الصعاب وقد تشققت الألسن من قلة الماء وتهدجت الحناجر من كثرة الدعاء وتأرجحت القلوب بين الخوف والرجاء، يهل صباحٌ يجمع ما بين نفوس سكنت همومها وأخرى فات ركب آمالها..

كانت صفية من الفريق الأول حيث تقريبًا حسمت أمرها أنها مسئولة عن اختيارتها وكأن شهر رمضان هو الإشارة الخضراء حتى تنطلق إلى وجهتها..

استقبلت العيد وفي قلبها عيد آخر غير الذي يحتفل به الناس.. عيد صفية.. أيقظت حازم والأولاد من أجل صلاة العيد..

-"هيا يا حازم استيقظ حتى نذهب لأداء صلاة العيد لا نريد أن نفوتها هذا العام"

-" نفوتها؟! هل ستأتين معنا؟! غريب.."

-" لمـاذا غريـب؟ أليسـت صـلاة العيـد سُـنّة وهـي أيضًـا إحدى مظاهر الفرحة والاحتفال؟"

-"نعم! ولكنك لم تـأتي معنـا من قبل! مـا الـذي جد هذا العام؟"

ابتسـمت صـفية ابتسـامة هادئـة واثقـة وأجابتـه :" الكثيـر!" و تركتـه متعجبـا مـن مزاجهـا هـذا الصـباح وذهبت لإيقاظ الأولاد..

-"خالد! لينة! هيا استيقظا إنه العيد!"

أجاباهـا متـأففين والنعـاس يـداعب عيونهمـا: "أمـاه! ولكننا نريد أن ننام فلنذهب في العيد القادم"

أجابتهما صفية متحمسة "هيا هيا ! من يعلم كم عيدًا سنشـهد فـي عمرنـا هـذا؟ تلـك الأيـام وتلـك اللحظـات قليلة!!"

وتركتهمـا لتسـتعد هـي وقـد انتقلـت لهمـا حالـة الاستغراب من حماسة أمهما التي لم يعتاداها، فقد كانت صـفية تحـتفظ بهـدوئها وثباتهـا الانفعـالي فـي أغلـب الأوقـات، فهـي لا تغضـب ولا تضـحك بشـدة ولا تنهـار بكـاءً ولا تتحمس ذلك النـوع من الحمـاس، ولكنهـا تتبـع نمطًا شبه واحد تقريبًا..

تذهب الأسرة الصغيرة إلى الجامع وقد يبدو للناظرين أنها أسرة متكونة من اثنين كبيرين وطفلين ولكن في الحقيقة أحد الكبار يحمل قلب طفل يكاد يقفز من فرطة الحماسة فقد أوشك أن يدخل عالما جديدًا.. عالمًا من صنع يديه هو فقط !

في كل عيد يجتمع الأهل عند خال صفية فقد كان كبير العائلة بعد وفاة جديها وجدتيها لأمها ولأبيها، فترى هناك كل أولاد خالها وخالاتها الذين لا تراهم تقريبا على مدار العام سوى مرات قليلة، فمشغوليات الحياة تجعل من الصعب أن تجتمع العائلة بصفة منتظمة. تأنق أفراد الأسرة بملابس العيد الجديدة، ارتدت صفية فستانها الأحمر الذي ظل حبيس الدولاب لعدة شهور..

-" أهلا صفية حبيبتي! كل عام وأنتم بخير، ما هذا الفستان الجميل؟! أول مرة أراكِ تلبسين هكذا" قالتها زوجة خالها وهي ترحب بهم عند استقبالهم. ابتسمت صفية ابتسامة خجولة ومتوترة نوعًا ما وشكرتها دون أن تسترسل في الحديث..

توافد الأهل والأقارب على المنزل وبين الأحضان والقبلات توجهت نظرات الإعجاب والاندهاش بفستان صفية.

-"ما هذا الذي ترتديه يا صفية؟! ألم أحدثك مئة مرة حول انتقاء الألوان؟ متى اشتريتِ هذا؟" عنفتها أمها بصوت خافت بين الحضور.

سمعتها زوجة الخال فتدخلت لتنجد صفية:" اتركيها يا خديجة لترتدي ما تشاء، فإن لم تفعل ذلك الآن متى ستفعله؟ ثم إننا لن نعيش عمرنا وعمرهم.. تعالي هيا.. هل رأيت حجرة الأحفاد الجديدة؟!" وأخذتها لتُريها الغرفة الجديدة لتفلت صفية من مناقشة لا طائل منها..

يجلس الجميع في الصالون يتجاذبون أطراف الحديث، يسأل الخال صفية بصوتٍ يسمعه الجميع: "كيف حال النيابة يا صفية؟ بلغني خبر ترقيتك المرتقبة"

-" نعم يا خالي احتمال كبير ولكن لست أدري متى بالضبط فلم أعد أهتم!" لم تدر صفية كيف خرجت الكلمات من فمها ولكن هكذا صار! ربما كان اللاوعي قد نطق مُخرجا مكنونات نفسها رغما عنها..

تفاجأ الخال بالرد وسكت الجميع لدى سماع إجابة صفية فسألها:" ماذا؟! لا تهتمين؟!"

رمقها أبوها بنظرة لم تفهمها وأجاب عنها "إنها تقصد أنها لا تهتم بالمناصب"

اكتفى الخال بهذا الرد وقال لها :"أنت تعلمين كم نفخر بك يا ابنتي، لا تخذلينا"

ابتسمت صفية وأجابته مضطربة "إن شاء الله يا خالي" وتغيرت دفة الحديث إلى مواضيع أخرى..

-"ما بك يا صفية؟" سألها حازم بصوت خافت وسط الحاضرين "تبدين شاردة قليلاً، أبِك شيء؟"

-" لا شيء حبيبي، مرهقة قليلاً"

-"هل تريدين المغادرة؟"

سكتت صفية قليلا ثم أتتها فكرة: "ما رأيك أن نتمشى نصف ساعة حول المنزل؟ الأولاد يلعبون هنا.. لن يشعر أحد بنا.." كان هذا الطلب أيضًا جديدًا على شخصية صفية، فهي لم تتعود أن تطلب شيئا كهذا من زوجها وبتلك الطريقة المرتجلة والتلقائية.. هي فقط تستقبل ما يعطيها إياه وتوافق على اقتراحاته في الخروج فيما عدا ربما مرة مباراة كرة القدم.. استجاب حازم لها وبالفعل انسلّا من وسط أهلها..

يتنزه الزوجان في شوراع محطة الرمل (قلب الإسكندرية) حيث يقطن خال صفية في إحدى عمارات تقاطع شارع فؤاد وشارع شريف.. ظلا يتمشيان

ويتحدثان في أشياء غير ذات بال إلى أن أخذتهما أقدامهما إلى المنشية أمام مجمع المحاكم.. اجتازا طريق الكورنيش وجلسا على سور الشاطئ القديم..

-"انظر يا حازم! كيف نفني حياتنا جيلاً بعد جيل في سبيل هذا الكيان؟" أتظن حقًا أننا في الجانب الصحيح؟" قالتها وهي تشير إلى مبنى المحكمة..

-" ماذا تقصدين بالجانب الصحيح؟؟"

-" أعني أنك أنت وأبوك وأبي من القضاة المستشارين تخطون إلى هذا الصرح وأنتم تحملون راية الفصل والبت في أمور الناس باسم العدالة، ولكن على الجانب الآخر منكم يهرع آخرون في نفس الطريق باحثين عن حقوق الناس ومدافعين عنهم بكل ما أوتوا من حيلة"

ضحك حازم قائلا:" ولكنهم يؤجرون لذلك يا صفية، هذا عملهم وليس لله خالصًا"

-" نعم بالتأكيد ولكن يظلون يبحثون عن حق موكليهم ونحن نبحث عن العدالة.. وأنت تعرف بالتأكيد أن تحقيق العدالة القضائية لا يعني بالضرورة إعطاء الحق لذويه.."

-" ربما.. ولكن أتظنين أن هذا جل ما يشغلهم؟ الحق؟ هم أيضا يبذلون ما في وسعهم للتحايل على ذلك الحق.."

-" نعم ولكن يبقى ذلك اختيار الفرد منهم، إنما أنتم معشر القضاة. ألا تشعر أنك حبيس الأوراق بين يديك؟ تحكم بالمعطيات بين يديك فقط، ربما تم إغفال ورقة فتحكم لطرفٍ على حساب آخر!"

-" ولكنه ليس خطأي!"

-" نعم أنا لا أحدثك عن الخطأ أو الممارسة السيئة للمهنتين إذا كان القضاء أو المحاماة يا حازم، ولكني أحدثك عن جوهر ورسالة كل منهما أيهما يجنح للمفهوم الأكبر لدراستنا؟ فهي كلية الحقوق وليست كلية القضاء.."

سكت حازم لحظات ليستوعب كلمات زوحته ثم سألها:"ماذا عن عملك أنت في النيابة الإدارية؟ أتشعرين بتلك المفارقة؟"

ابتسمت صفية ابتسامة بجانب شفتيها لم تلبث أن اختفت في جدية ارتدتها حيث شق عليها أن تخرج الكلمات نوعا ما:" أنا أشعر أني موظفة يا حازم.. مثل الكاتب.. ربما أقضي وقتا طويلا في كتابة القضايا

ولكنه يظل عملا ورقيًا.. لا أرنو فيه من قريب أو بعيد إلى ما تمنيت تحقيقه بتلك الدراسة التي تشربتها أربع سنوات في أروقة الكلية وقاعاتها.."

سكت حازم مفكرًا فقد تراءى له بعض الشيء ما الذي تحاول صفية أن تقول له، فسألها بغتة:" هل تريدين أن تتركي النيابة يا صفية؟!"

ارتبكت صفية فهي لم تترجم أفكارها إلى فعل واقعي بعد.. أو جاءتها الفكرة ولكنها أول مرة تسمعها بصوتٍ عالٍ وعلى لسان غير لسانها..!

-" أريد؟! وهل هذا يكفي يا حازم؟ أن أريد؟!"

-"صفية! هل تحلمين حتى؟!"

-"نعم يا حازم.. "

سكت وأطال الصمت ثم سألها:" وهل أفهم مما سبق أنك تبغين امتهان المحاماة؟"

أجابت مترددة:" ربما.."

-"هل تدركين ما معنى ذلك؟ وما عواقبه؟"

بمزيد من التردد: " نعم.."

-" إنك تفتحين باب الجحيم يا صفية..."

لم تجبه وأشاحت بوجهها تتأمل المراكب والصيادين.. أغلقت عينيها وأحسنت ضم جفونها ولكن تفر من جانبيه دمعتين هاربتين شقا طريقهما وسط وجنتيها المضطربتين..

-"صفية! حدثيني"

تمسح صفية دموعها وتعود بوجهها لزوجها معلقة نظرها بعينيه وتقول له :

"من قال إن باب الجحيم مغلق؟!" استغرب رد صفية له وسألها "ماذا تقصدين؟"

-" أقصد أن ليس دائما المواجهة هي الجحيم.. ولكن الصراع ذاته هو الجحيم.. "

-" نعم ولكن فكري بوالدك ووالدتك.. إذا تغاضينا عني أنا.. هل تعتقدين أنهم سيوافقون؟؟"

-"هنا تكمن المشكلة! لِمَ عليهم أن يوافقوا أو يرفضوا؟! أليست تلك حياتي أنا؟"

-"أول مرة أسمع منك هذا الكلام يا صفية.. لقد كنت أشعر أن ثمة شيئا تغير بك طوال الأشهر الماضية ولكني لم أتصور ذلك.."

تحمست صفية مرة واحدة :" صدقني يا حازم.. هي أول مرة أسمع نفسي تنطق بمثل تلك الكلمات.. ولكني غير نادمة.."

صمت حازم ونظر في ساعته فقد شعر أن وقتًا طويلاً قد مضى ويجب أن يعودا:

-"هيا بنا دعينا نكمل حديثنا في وقتٍ لاحق لقد تأخر الوقت"

ومضيا في شوارع المدينة كلاهما معا ولكن سكن في النفس ما سكن.. صفية تشعر بإنجازها الأول باجتياز تلك الكلمات حاجز شفتيها.. أما حازم فيشعر بثقل تلك الكلمات على قلبه.. فقد كان يدرك بالعقل الذكوري تبعات مثل هذا القرار والسبب في العودة إلى بيت خال صفية ليس تأخر الوقت ولكنه أراد أن يمنح نفسه فرصة للتفكير .. ماذا سيفعل؟!!

١٠

لم يتحدث حازم وصفية في الموضوع مرة أخرى، فقد كان حازم يحاول أن يتحاشا الحوار حتى يحسم أمره فقد كان يخشى الاختيار هو الآخر، فمشكلة صفية لم تكن حصرية وإنما مست جيلا بأكمله.. ولكن بدرجات متفاوتة... لم يستطع أن يبت في أمره إلا باستشارة الجيل الذي يسبقه ..

بعد عدة أيام.. وقد هلت بوادر الخريف مع شهر أكتوبر.. لم تذهب صفية إلى العمل وظلت بالمنزل وقد ذهب الأولاد إلى المدرسة.. تجلس صفية في حجرة الأولاد وصابرين تعاونها في إدخال بعض الملابس

الصـيفية وإخـراج الملابـس الخريفيـة والشـتوية مـن "السحارة" وقد بدا على صفية التعب من هذه العملية المرهقة، فقد كانت تكره هذا الوقت من العام سواء الخريف أو الربيع حيث يتغير الجو بعكس رتابة فصلي الصيف والشتاء.. تزفر صفية زفرة عميقة وهي تقول لصابرين:

" لقد تعبت!"
-" دعيني أكمل يا مدام صفية وارتاحي قليلاً"
-" ولكنك ستغرقين وحدك يا صابرين في كل هذه الملابس، ثم أنا أعرف ماذا يفضل الأولاد من الملابس حتى نغسله فالاختيارات كثيرة هنا ويظل خالد ولينة يتشاجران معي حول ما يرتديانه في كل مرة نخرج"
-" بعد إذنك يا مدام اعذريني فيما سأقوله ولكن الكثرة تعلم الطفل (الأنعرة)، لو لم يكن لديهما هذا الكم الهائل من الملابس ما احتارا"

سكتت صفية لثوانٍ ثم أجابتها:"اممم ربما معك حق.. سأتركك قليلا لأصلي الظهر ثم أعود"

غادرت صفية الحجرة وهي شاردة في كلام صابرين التلقائي والذي قد يبدو فيه مسحة حقد طبقي للذي لم يعاشرها جيدًا.. ولكن صفية تعلم جيدًا أن صابرين ليست من هذا النوع... أخذت تفكر فيما وراء

تلك الكلمات العفوية وقد بسطت سجادة الصلاة وبدأت تحادث نفسها قبل أن تبدأ.. هل يتشاجر فعلا الأولاد ولا يستطيعون حسم أمرهم حول ما يرتدونه لأن الاختيارات كثيرة؟! وهل الحل أن نحُد من تلك الاختيارات؟! أيصنع ذلك قرارًا حاسمًا؟! أليس هذا ما حدث معي؟! وكيف كانت النتيجة؟! المزيد من الحيرة !

"الله أكبر!" بدأت صفية الصلاة لعلها تجد ضالتها.. أخذت تسرد الفاتحة في سرها بتأنٍ وكأنما تنتظر الإجابة من كل آية..
بسم الله الرحمن الرحيم.. (رحمتك يا الله) الحمد لله رب العالمين..(اللهم أحمدك يا رب على نعمة البصيرة قبل البصر) الرحمن الرحيم.. (كيف نكون بلا رحمة الله؟!!) مالك يوم الدين.. (يا رب كلنا نعافر من أجل ذلك اليوم، أنت الملك ونحن العبيد) إياك نعبد وإياك نستعين.. (أعِنا يا الله.. فقد ضعف الجسد ووهنت الروح) اهدنا الصراط المستقيم (اهدنا يا الله.. باختيارات أو لا... بدون هدايتك لا شيء يُفيد... ولكن أي صراط مستقيم هذا الذي تريدنا أن نتبعه؟؟ الطريق إلى الجنة! ولكن كيف نأتيك مستقيمين وقد انحنى بنا الطريق مرة بعد مرة ماذا تقصد بالمستقيم؟ وهل هو مستقيم لأنه اتجاه واحد؟) صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

(أنا لا أعبأ بما فسره الناس في تلك الآية ولكني أعلم أن كتابك ذو رسالتين، رسالة الجمع التي يفسرها الشيوخ ورسالة الفرد.. التي تجعل كل إنسان عندما يتناول تلك اللآلئ على لسانه أو يستمع لقرآنك، يستقبل ما تريده أن يصله وتلك هي المعجزة الحقيقية.. من الذين أنعمت عليهم يا رب؟ ومن الذين غضبت عليهم؟ اللهم لاتجعلنا منهم يا الله..)
ركعة بعد ركعة وسجدة بعد سجدة.. تدعو صفية ربها أن ينير بصيرتها مع أولادها ويهديها لما تريد وتشاء...
"السلام عليكم ورحمة الله" ختمت صفية الصلاة وظلت جالسة تستكمل حوارها مع نفسها..
-" مدام صفية ! تفضلي لقد وجدت تلك البطاقة في إحدى ستراتك..."

نظرت صفية للبطاقة التي تحمل اسم نادية عامر بخطٍ عريض براق، المحامية التي قابلتها في النادي منذ بضعة أشهر.. فإذا بها تجتر ذكرى لقائها وهي تتأمل البطاقة وتتحسس الاسم بأناملها..

كيف أنها استطاعت مواجهة كل من حولها من أجل تلك الأحرف التي خطت من الحبر على البطاقة وخطت من الألم والإصرار على روحها..

وضعت البطاقة على الأرض بجانبها ورفعت يديها إلى الله "يا من أقرب إليّ من حبل الوريد، اهدني إليك و إلى نفسي"

ثم قامت لتطوي سجادة الصلاة وتطوي بين ثنياها أسرارها وابتهالاتها إلى الله.. وألصقت البطاقة بالمرآة كي تراها كل يوم.. ربما حتى لا يغيب عنها حلمها.. فكم من أحلامٍ تركت في الظلام حتى غشيها التراب..

كانت أولى قطرات الغيث ذلك العام.. لم يكن الجو باردًا بعد فمازال شهر أكتوبر في نصفه ولكن السماء تهطل بالمطر ماحية آثار الصيف وحرارته تمهيدًا لفصلٍ جديد يُنبِت فرصًا جديدة لم تُقتطف بعد..

وكعادة كل خميس يلتقي أفراد أسرة صفية في بيت أبيها.. ولكنه لم يكن مثل كل خميس، فقد عزمت صفية أن تفتح بابًا من أبواب الجحيم كما قال لها حازم.. ولكنها لم تره كذلك.. فعلى الرغم من رهبتها فقد رأته بابًا للخلاص.. بابًا للأمل.. كل ما عليها أن تفتحه بغض النظر عما تأتي به الريح منه..

منذ أن خطت إلى المنزل وهي تحاول أن تتحين اللحظة المناسبة التي تُلقي فيها بخبرها.. فقد كانت مؤمنة تمامًا بحقها في بالاختيار.. ويكفيها أنها تريد !

كم يمر الوقت ثقيلاً.. على طاولة الطعام ومع كل ملعقة تُدخِلها في فمها تترقب صفية تلك الكلمات التي أعدتها للخروج من ذات الفم.. تنظر صفية إلى وجهي أبويها وتتخيل أنه بمجرد أن تسكب ما في جعبتها ستنزوي ابتسامتهما وتنبعج إلى نظرة غضب واعتراض تعتليها تقطيبة حاجبين وزمة فم لطالما حُفِرَت في عقلها كلما صدر عنها مالا يُرضي.. يقطع شرودها صوت أمها: "لِمَ لا تأكلين يا صفية حبيبتي؟ قد طهوت لكِ ما تحبين خصيصًا"

يجتاح صفية نوبة سريعة من تأنيب الضمير وتجيب أمها :"سلمت يداكِ يا أمي، سوف آكل حالا" فينبعث ذلك الصوت بداخلها "انظري لها كيف تحبك! أتكسرين بخاطرها وتُغضبينها هكذا؟" ثم تجيب ذلك الصوت بصوتٍ آخر.. "يا الله ! ولماذا يغضبون؟! أليس أنا من يعيش؟ إلى متى سأظل أحسب حساب غيري.. وأتركني حبيسة نفسي.."

لم ينقذها من حديث نفسها إلا حازم وقد كان على علم بنية صفية :" أكاد أسقط نومًا يا صفية.. هلا أعددتِ لي كوبًا من القهوة بعد الأكل؟"

-"لقد انتهيت من طعامي سأعدها لك الآن"
-"أشكرك"

تقف صفية تلقم البن، وتعاير فنجان المياه لتسكبها في (الكنكة) وتضيف السكر لتقلب كل ذلك معًا.. تحضير القهوة بالنسبة لصفية طقس تهواه بالرغم من أنها لم تسِغها طوال عمرها.. أول شيء تعلمت صنعه في المطبخ وهي صغيرة.. فقد كانت المشروب الرسمي لأبويها وأجدادها.. لحظات انتظار صفية أمام كنكة القهوة ومراقبتها قبل أن تفور ترسم عمرها في الانتظار.. علمًا بأن القهوة لا تُشرب إذا بلغت الغليان فكانت دائما شديدة الحرص ألا تغلي مع أنها ظلت تتساءل في نفسها لِمَ لا تُشرب القهوة المغلية؟! لم تكن تدري صفية أن هناك من لا يشربون القهوة إلا وهي مغلية (بدون وش)! كادت أن تفور منها بالفعل في وسط شرودها.. ولكنها أدركتها في آخر لحظة وتوجهت بها إلى حازم وقد انتهى الجميع من الطعام وجلسوا في (الصالون) يرتشفون الشاي الذي أعدته هالة أختها في نفس توقيت إعدادها للقهوة..

-" صفية يا ابنتي ماذا حدث؟ لماذا تأخرت ترقيتك؟" سألها والدها قلقًا.
-" لست أدري يا أبي! ربما أعادوا النظر" أجابته صفية وهي تفتعل ضحكة متوترة..
-" كيف ؟! و(هما يطولوا)"

-" ولكن لا تدري يا أبي لعله خير، ربما ما سعينا له طوال حياتنا لم يكن خيرًا لنا.. وربما عدم حصولنا عليه يتيح لنا فرصة جديدة"
-" ماذا تقصدين؟! أي فرصة؟ عمَّ تتحدثين؟"
-" أقصد أن عدم حصولنا على ما نلهث وراءه ربما يكون نعمة في بعض الأحيان.. لأنه يسمح لنا ببعض الوقت كي نتيقن من رغبتنا في هذا الشيء بالفعل أو إذا كان هناك شيء آخر نريده ولكننا لم نبحث عنه بعد أو نسعى إليه"
-" وما الذي يمكن أن تبغيه أكثر من هذا؟ أليس هذا ما اجتهدتِ من أجله منذ سنوات الدراسة؟ لقد انتظرنا طويلا حتى نرى ذلك الحلم حقيقة!"
-" أي حلم؟ حلمي أنا أم حلمكم أنتم يا أبي؟"

اعتدل والد صفية في جلسته فكان أول مرة يسمع تلك النبرة من صفية، وقال لها متعجباً : "وما الفرق؟! إنه حلمنا معًا"

-" ولكني لا أريد هذا يا أبي! أنا لا أريد أن أعمل في النيابة بعد الآن!"

دخلت والدة صفية في تلك اللحظة وكلها دهشة واستنكار تتبعها هالة:

"ماذا؟! لا تريدين ماذا؟!"

" يا أمي أنا لم أرد ذلك.. ولم يكن ذلك حلمي قط !"
-" أفقدت عقلك يا ابنتي؟ كيف لم تريدي ذلك؟ ولكننا لم نجبرك على شيء"
-" لم تجبروني ولكن لم يكن لديّ الاختيار أيضًا!"

نظر لها والداها فلم يستوعبوا ما تقصده صفية.. فأدار والدها دفة الحديث سائلاً إياها:

"ما هذا الكلام يا صفية ؟! دعينا من الماضي فلا فائدة من الحكي عنه ولنتكلم عن الحاضر الآن.. ما الحل؟ لقد كان ما كان! فأنت لن تتركي وظيفتك الآن بعد تلك السنوات.."
-" بلي ! "

اندفعت والدة صفية غاضبة تسألها:
"كيف؟! هل ستصبحين ربة منزل بعد كل هذا العناء؟!"
-"من قال هذا؟ أنا أحب الحقوق ولن أتخلى عن مجالي وأنا فقط أريد أن أغير وظيفتي" عادت تسألها أمها بعصبية "وماذا ستعملين إن شاء الله؟!"

صمتت صفية وقد ترددت أن تجيب ولكن نظرات والديها لم تدع لها مجالا أكثر لهذا السكوت فألقت بقذيفتها:

"سأمتهن المحاماة!"

صمت والداها تمامًا وتجهم وجهاهما في حين انفرجت أسارير هالة..

ظل حازم صامتا طوال ذلك الحوار فقد كان يريد صفية أن تخوض تلك التجربة بغض النظر عن النتائج التي تؤدي لها.. ربما لم يتحدثا مرة أخرى بعدما أفضت له بخوطرها ونيتها.. ولكن ترفقه بها طوال الأيام الماضية إن دل على شيء فإنما يدل عن تعاطفه معها وإن لم تجد الكلمات طريقا لها على لسانه..

بعد فترة صمت طويلة وثقيلة، توجه والد صفية بالكلام لحازم وسأله بخليط من الجدية والغضب والعتاب:

" هل عندك خبر عن هذا؟"
أجابه حازم مقتضبًا:
- "نعم"

- "إذن نحن آخر من يعلم! وما رأيك؟"

صمت حازم للحظات فقد كان أول مرة يسمع نفسه يقول رأيه في موضوع صفية ثم اعتدل في جلسته مجيبا حماه:

" ربما كان الخبر صادمًا في البداية وربما انتابني بعض الغضب.. ولكن قد أتيح لي وقت ليس بالقليل للتفكير ووجدت أنه لا يهم! لا يهم ما أرى ولا ما يراه أي أحد.. المهم ما تراه هي .."

نظرت له صفية مندهشة وسعيدة من موقفه في آنٍ واحد، ولكن هذا لم يكن حال والديها، فقد استشاطا غضبا من حازم وقد عبرت الأم عنه قائلة:

" هكذا إذن يا حازم! من قال لا يهم؟ بل يهم وهذا هو الهراء بعينه، كيف تصيرين محامية في هذا المجتمع؟! هي مهنة للرجال فقط بل هي مهنة من لم يجد مهنة (محترمة له) فما بالك وأنت تعملين في النيابة! ثم ما هذا الهراء عن الإجبار والاختيار؟! هل سبق وطلبتِ أن تدخلي كلية أخرى ونحن رفضنا؟!"
- " ولكن يا أمي أنا لم ...."
قاطعتها والدتها بحدة :" ولكن ماذا؟ أنت لم تطلبي!!"

ثم توجهت بحديثها لوالد صفية: "هيا يا رياض تلك مناقشة عقيمة، أبعد كل هذه السنوات وذلك العمر تأتي ابنتنا لتكيل لنا الاتهامات وتعظنا عن الاختيارات !"

غادر والداها (الصالون) غاضبين تاركيها دون أن تشرح وجهة نظرها كاملةً..

بكت صفية.. دموعًا جرتها أذيال الخيبة على وجنتيها.. فقد نسجت خيالاً حول قدرتها على مصارحة والديها بما يدور في خَلدها.. هي لم تحزن لأنهما غضبا منها ولكنها حزنت لأنهما لم يدركا ما أرادت أن تخبرهما به.. لم تحادثهما بكل ما جال بخاطرها طوال الأشهر الماضية.. دقائق معدودة لا تكفي أن تقص ما سكن في قلبها لأشهر ومن قبلها دُفن لسنوات..

١١

مضت عدة أيام ظلت صفية فيها حزينة ليس لأنها خسرت معركتها.. فهي لم تعتبر نفسها كذلك ولكن لأن لم تستطع أن تعبر عن ذاتها وتشرح أفكارها الجديدة التي كونتها على مدار الشهور الماضية.. لم ترد أن تُغضب أبويها أو تنكر جميلهما عليها ولكن يبدو أنه لم يكن مفر من ذلك..

لم يتحادثوا لفترة.. استقالت فيها صفية في ظل اعتراضات كثيرة من بقية العائلة والأصدقاء.. في

البداية وجدت صفية صعوبة كبيرة في مواجهة الناس فقد كانت نظراتهم أقسى من غضب والديها فكلها بمعنى انظروا المجنونة! ماذا تظن نفسها فاعلة؟ انتظروا حتى تفيق على الكارثة التي صنعها تحمسها الغبي..

على الجهة الأخرى، ظل والدا صفية في حالة غضبٍ صامت، بدأت اللقاءات تتجدد من جديد، فتزورهما ابنتهما ولكن سكن بينهم لوح من زجاج حطم الصورة المطيعة لابنتهما التي لا تقول لا.. لا تدري صفية بم يفكران فعليًا هل أعادا التفكير فاستسلما أم أنهما مازالا عند رأيهما.. ولكن ذلك الصمت كان يقتلها ويمزقها حتى كادت أن تنصاع لأمرٍ غير منطوق..

حل شهر نوفمبر وصفية لاتزال تقضي فترة نقاهة من وظيفتها السابقة.. لم تكن تعلم من أين تبدأ وكيف تخطو في الطريق الذي لم يطأه إلا القليل.. ولم تكن تدري إلى أين ستفضي بها تلك الطريق فالمخاطرة ليست باليسيرة..

"نادية عامر!"

نطقت صفية باسمها وهي شاردة في إحدى جرائد اليوم تبحث عن مكان يصلح أن يكون مكتب محاماة.. طوت الجريدة وأخذت تحدث نفسها مرة أخرى:

"أين وضعت بطاقتها يا صفية؟! أين؟ أين؟ لقد أعطتني إياها صابرين الشهر الماضي.. ولكني لا أتذكر ماذا فعلت بها!"

جرت إلى حجرتها وأخذت تبعثر بين أشيائها وتبحث في حقائبها.. ولما طالت مدة البحث بدأت تتعصب..

" أين! أين! تلك البطاقة اللعينة!"

كانت تبحث عن البطاقة بإصرار وكفاح، فقد كان حلمها يتعلق بتلك البطاقة.. بعد بحثٍ مرير.. وقفت صفية في وسط حجرتها تعتصر ذاكرتها أين وضعت البطاقة.. أغمضت عينيها وقطرات العرق تنساب على جبينها في عز شهر نوفمبر لتزفر زفرة طويلة يأتي في آخرها الفرج فتفتح عينيها فترى البطاقة معلقة على المرآة!

"الحمد لله! وجدتها !"

جرت صفية عليها لتتحقق منها غير مصدقة عينيها أو ذاكرتها التي استردتها دفعة واحدة عندما تذكرت أنها لصقتها هنا حتى لا تضيع.. هكذا هو الأمل يلتقطنا في آخر لحظة قبل أن نرتطم بقاع اليأس والاستسلام.. جلبت صفية الهاتف لتطلب رقم نادية ثم ترددت قليلا:

"ولكن ماذا سأقول لها؟ ولماذا أظن أنها ستساعدني؟ وكيف ستساعدني أساسًا؟"

حسمت صفية التردد بطلبها رقم الهاتف وهي تقول في نفسها "سنرى الآن"

-"ألو؟ أهلاً نادية! أنا صفية الهمشري.. هل تذكرينني؟ كنا قد التقينا في.."

تقاطعها نادية مجيبة: "نعم نعم.. أذكرك يا صفية كيف حالك؟""

- " الحمد لله، كنت أتمنى أن ألتقي بك في القريب العاجل؟ متى يناسبك؟"

-" بالتأكيد، شغل وقضايا؟ أم جلسة ودية؟

-" بعض من الاثنين.."

- "إذن نلتقي اليوم في مكتبي هذا المساء؟"

-" ممتاز، أراكِ لاحقًا.. مع السلامة"

-" مع السلامة"

مضت السويعات القليلة على صفية قبل الموعد بطيئة ثقيلة، فقد كانت تتلهف أن ترى مكتب نادية، فقد كانت تأمل أن تقترح أن يكون اللقاء هناك وبالفعل قد كان.. كان المكتب في شارع صلاح سالم في وسط البلد.. في إحدى بنايات الإسكندرية القديمة ذات السقف العالي والأبواب الخشبية المزدوجة.. دخلت صفية المكتب متأملة المكان حولها فقد كان كل شيء حولها عتيقًا.. الكراسي والكنب والديكور وكل اللوحات المعلقة.. لم يكن ينقص إلا أن يخرج من جوف المكتب محامٍ في العقد الخامس من عمره حتى تكتمل الصورة.. وعلى العكس تماما دلفت نادية في القاعة الخارجية بطلّتها الجميلة والعصرية، والأهم من كل ذلك فقد كان أكثر ما يميز نادية ملامحها الحية! فقد كان كل شيء فيها يبعث على الحياة.. ابتسامتها، عيناها ونظراتها، حتى مشيتها.. استقبلتها نادية مرحبة:

-"أهلا صفية! شَرفت بزيارتك"

-" شكرا نادية.. ما شاء الله المكتب جميل جدا "

-" لقد اخترت كل قطعة منه بنفسي.. "

دعتهـا نادیــة إلــى داخـل حجـرة المكتـب الأساسـية وسألتها باهتمام:

-" كيف حال العمل في النيابة؟"

سكتت صفية وابتسمت ثم أجابتها:

-" لقد تركت النيابة !"

لم يبد علي نادية المفاجأة بل ارتسمت على وجهها ابتسامة واسعة وهي تقول:

"قد رأيتها على وجهك "

-" رأيتها؟!"

-نعم تلك النظرة في عينيك يوم التقينا في النادي"

-"أيةُ نظرة؟"

-"نظرة من يبحث عن مخرج.. نظرة المغترب.. نظرة التائه.. "

بادلتها صفية بنفس الابتسامة الواسعة مجيبة:

" وماذا ترين الان؟"

-" أرى العائد إلى وطنه ولكنه مازال يلهث على الشاطئ يلتقط أنفاسه!"

سألتها صفية مباشرة بدون مقدمات:

" أريد أن أصير محامية يا نادية ولا أعرف من أين أبدأ.. كل من حولي ينعتني بالجنون.. فلم أرَ أمامي سوى بطاقتك ! "

ضحكت نادية ضحكة عالية قائلة :

"الجنون ! قد جئتِ لأكبر مجنونة بالإسكندرية !" ثم سكتت لوهلة واستطردت بجدية وهي تنظر لصفية بشدة:

"انظري يا عزيزتي ! إذا أنت اخترتِ أن تسلكي تلك الطريق.. ولندعُها مثلما يُطلِق عليها العامة "طريق المجانين" والتي كتب عليها "ممنوع الدخول" سيتحتم

عليكِ أن تُسقطي الناس من حيز اهتمامك.. فلا تستهلكي طاقتك في التفكير فيما يظنونه فيكِ.. فلا طائل من ذلك.. ثم إن تلك الطريق روَّادها قليلون.. ولا يلتفت فيها أحد لغيره.. لا يشغلهم سوى الهدف الذي وضعوه نصب أعينهم .. فهل أنت منهم؟"

ترددت صفية قليلا ثم أجابتها :

" أعتقد ذلك.. أنا أريد أن أكون منهم.."

-" لا مجال للتردد يا صفية، احسمي أمرك.. لأنه لا يوجد سوى طريقين.. وفيما أرى أنك على عتبة الطريق الثاني، فإما أن تخطي بخطى واثقة فيه أو تعودي على عقبيك"

-" أنا واثقة !"

-"إذن هيا بنا !"

قامت نادية متوجهة إلى إحدى حجرات المكتب وصفية تتبعها، وقفت أمام الحجرة قائلة:

"هيا افتحي الباب"

فتحت صفية الباب متسألة:

"أنجلس هنا أم ماذا؟"

دعتها نادية للدخول وهي تجيبها:

" لا.. هيا اخطي أولى خطواتك إلى مكتبك الجديد"

-"مكتبي؟!"

-" نعم ! ستعملين معي يا صفية محامية تحت التمرين.. حتى يشتد عودك وأنا على ثقة أنك ستتعلمين سريعًا"

-"أتمزحين؟! "

ضحكت نادية نفس ضحكتها العالية المميزة وأجابتها:

-" مطلقاً ! لا تقلقي يا عزيزتي! سأستفيد من علاقاتك في وسط القضاء أيضًا.. وأنت سوف تستفيدين من خبرتي في المجال بحكم أني أسبقك في السنوات ليس إلا!"

-" لست أدري كيف أشكرك!"

-" علـى مـاذا؟! هو تبـادل منفعـة! ثـم إنـك سـتعملين حتـى ينقطع نَفَسُك لا تقلقي!" قالتها وهي تجلجل بضحكتها من جديـد.. ثـم اسـتطردت: "غـدًا نـذهب معًـا للتسـجيل فـي النقابة إن شاء الله"

عانقتهـا صـفية وهـي فـي قمـة الحمـاس وغـادرت المكتـب وهـي تطيـرُ فرحًـا.. لـم تسـتقل سـيارتها وإنمـا هامت في أحياء محطة الرمل وصولاً إلى المنشية علـى طريـق الكـورنيش.. كانـت سـعيدة.. سـعيدة جـدًا.. وقفـت أمام المحكمـة وأخـذت تنظـر إليهـا وكلهـا أمـل وطمـوح.. في نفس ذات المكـان وقفـت تبكـي منـذ عـدة أشـهر.. يـوم أن اعترفـت لنفسـها ولزوجهـا أنهـا تبغـي تـرك النيابـة والالتحاق بركب المحاماه.. واليوم يرتسم علـى وجنتيهـا محـل الـدموع ابتسـامة.. ابتسـامة يـدق معهـا قلبهـا مترقبًـا ذلـك اليـوم الـذي تعبـر فيـه عتبـة المحكمـة متشـحة بـرداء المحاماة الأسود..

تمت

للتواصل مع الكاتبة

Nourhane AbdelRahman El Rachidy

الإسكندرية ج . م . ع

(+٢) ٠١٠١٨٨٣١٣٦١

(+٢) ٠٣/ ٥٧٦٥٧٧٧

حسناء للنشر والتوزيع